الفرويدية . . . . . .
فكر علمي أصيل أم ضجة في العلم قامت وانتهت

قاسم حسين صالح
المدرس قسم علم النفس في كلية الآداب / جامعة بغداد

القسم الأول:

٤١
٠«حوار مع فرويد»

لو أجرينا مسحاً لأهم ما كتب عن (فرويد)، لوجدنا وجهات نظر تثير حدة التباين فيها دهشة الكثيرين منا. فبعض وجهات النظر اعتبرت (فرويد) ثورياً قدم للقرن العشرين خدمات لا تقارن إلا بما قدمه (ماركس) للقرن التاسع عشر، وإنه ـ فرويد ـ لا يقل خطورة عن (ماركس) نفسه. في حين ترى وجهة نظر أخرى في (فرويد) بأنه هو الشخص الذي وجه الضربة (القاضية) للماركسية!. ويتحمس بعضهم (لفرويد) لكونه ناقداً جرئياً «للأخلاق البرجوازية وداعياً من أجل قيم أخلاقية جديدة. في حين وصفه آخرون بأنه خير معبر عن برجوازية فيينا في القرن العشرين. فيما اعتبره آخرون زنديقاً هدف إلى تهديم الأخلاق والدين.

ويرى آخرون بأن أحداً من المفكرين منذ عهد (أرسطو) لم يوفق

إلى فهم الطبيعة الإنسانية إلى مثل ما وفق إليه (فرويد). وأنه الباحث الذي كشف عن رحاب مجهولة للروح البشرية. وإنه أحد أعظم المعادين لليوتوبيا في أوائل القرن العشرين. وأنه لا يوجد في العصر الحديث شخص عظيم له عقل ومزاج متطوران كما هو الحال بالنسبة إلى (فرويد) بينما يرى اتجاه مضاد بأن كل ما جاء به (فرويد) هو شكل من أشكال التعبير عن اللاعقلانية. وإن الفرويدية معادية للتقدم الإنساني لكونها ترى أن الشر الاجتماعي لا بد منه. وانها تعطي دوراً مطلقاً للدافع النفسي في سلوك الفرد. وتقيم فلسفة فرويد ـ من إحدى وجهات النظر ـ بكونها تشاؤمية. في حين يرى آخرون في (فرويد) مبشراً من نمط (كارل ماركس)!.

وإذا كانت مثل هذه المواقف تأتي من خارج الحركة الفرويدية، فإن في داخل الحركة الفرويدية تيارات تطلق على نفسها تسميات اليسار واليمين والمحافظة. وتتبادل هذه التيارات التهم في ما بينها لدرجة أن اليمين منها يعتبر يسار الفرويدية الوجه السايكولوجي للماركسية، في الوقت الذي ترفض فيه الماركسية كل هذه الاتجاهات باعتبارها مثالية.

إن الفكر العربي لم يحسم الموقف بعد من الفرويدية، كما جرى في بعض الجامعات الأوربية التي أدخلت مادة التحليل النفسي دراسة وتطبيقاً، أو كما هي الحال في الاتحاد السوفياتي الذي منع دخول كتابات (فرويد) منذ ثلاثينات هذا القرن. وبغض النظر عن صواب أو عدم صواب أي من الموقفين، فإن الحقيقة التي تفرض نفسها هي أن القارىء العربي بحاجة إلى الاطلاع على مزيد من النقد الموضوعي لنظرية (فرويد) وهذا البحث مساهمة على هذا الطريق. فارتأينا أن يتضمن القسم الأول حواراً مع (فرويد) يهدف إلى توضيح أساسيات نظريته وأفكاره. وفي طرحنا للأسئلة انطلقنا من افتراض أننا لو وجهنا هذه الأسئلة إلى (فرويد) نفسه لحصلنا على نفس أساسيات الإجابات التي استقيناها من كتاباته هو وليس مما كتب عنه.

+ لنبدأ معك سؤالاً تقليدياً عن بدايات حياتك.

فرويد: ولدت في السادس من مايس عام ١٨٥٦ في فريبرج بمورافيا، تلك المدينة الصغيرة التي توجد فيما يعرف الآن بتشيكوسلوفاكيا وفي السنة الرابعة من عمري نزحت إلى فيينا وهناك تلقيت كل تعليمي متعطشاً إلى العلوم الانسانية، وكان لمعرفتي بقصص الكتاب المقدس أثر دائم في توجيه اهتمامي. وأردت أن أدرس القانون وأن أكرس حياتي للشؤون، الاجتماعية. غير أن نظرية دارون اجتذبتني إليها اجتذاباً قوياً لما كانت تبشر به في فهم الكون. واذكر أن استماعي إلى مقال (جوته) الممتع عن الطبيعة قبيل تخرجي من المدرسة، هو الذي جعلني أقرر أن أدرس الطب. وعند التحاقي بالجامعة عام ١٨٧٣ اكتشفت

(سدى تجول في دروب العلم
لا يتعلم الإنسان غير ما يستطيع تعلمه).

هذا يعني أنك لم تكن ميالاً لدراسة الطب.

فرويد : نعم. لم أكن في ذلك الوقت، وفي أي وقت آخر أشعر بميل خاص إلى مهنه الطب ما عدا الطب النفسي. ولهذا كنت أتابع دراستي الطبية بإهمال كبير فحصلت على شهادة دكتوراه في الطب في وقت متأخر وذلك في عام ١٨٨١. وبعدها بعام التحقت طبيباً تحت التمرين بالمستشفى العام. ثم رقيت إلى وظيفة طبيب مقيم. وخلال الأعوام التالية ـ وبينما كنت ما أزال أعمل طبيباً مقيمًا ـ نشرت عدداً من المشاهدات الإكلينيكية عما يلحق بالجهاز العصبي من إصابات عضوية. وأخذت خبرتي

تزداد حتى أصبح بوسعي أن أحدد موضع إصابة ما في النخاع المستطيل تحديداً كان من الدقة بحيث لم يعد بوسع المشرع الباثولوجي أن يضيف شيئاً شخصتها التهاب أعصاب حاد.

+ : ولا بد أنها كانت سبباً في بدايات شهرتك؟

فرويد: : لدرجة أنه أقبل عليّ سيل من الأطباء الأمريكيين كنت أحاضرهم ولم أكن أفهم شيئاً عن الأمراض العصبية. حتى إنني عرضت ذات مرة على جهور المستمعين حالة مريض عصابي يشكو من صداع دائم بوصفها حالة التهاب سحائي موضعي مزمن. وعن حق ثار الجميع ضدي وانفضوا من حولي. وكان ذلك خاتمة النشاط التعليمي الذي اضطلعت به قبل الأوان.

+ : نعلم أنك في عام ١٨٨٥ منحت مكافأة مالية كبيرة لرحلة دراسية إلى باريس. وهناك تعرفت إلى الطبيب المشهور (شاركو). فما هو الجديد الذي تعلمته من (شاركو) وباريس؟.

فرويد: : أكثر الأشياء تأثيراً في نفسي خلال الفترة التي قضيتها مع (شاركو) هي آخر بحوثه في الهستيريا. وقد شاهدته يجري بعض تلك البحوث. من ذلك أنه أثبت أن الأعراض الهستيرية وقائع طبيعية تنتظمها وقائع قوانين (أدخلوا فالآلهة هنا) كما أثبت كثرة اصابة الرجال بالهستيريا ـ وهذا خلاف الاعتقاد الشائع آنذاك باقتصار الهستيريا على النساء ـ وأحداث الشلل والتقلصات الهستيرية بواسطة الإيحاء التنويمي. ولا شك أن ما تعلمناه عن (شاركو) في ذلك الحين لم يعد كله اليوم صحيحاً.

+ : بعد عودتك إلى فيينا عام ١٨٨٦ وزواجك من مارتا برنايس التي بقيت في انتظارك أكثر من أربعة أعوام، وأصبحت أخصائياً في الأمراض العصبية، تعرفت إلى الدكتور (جوزيف بروير) الذي كان من أطباء الأسر المرموقين في فيينا. وكان ذا ماضٍ علمي وشهرة وذكاء وقاد كما تصفه أنت. وقد نشرت بالإشتراك معه كتابكما (دراسات في الهستيريا). ولكنك خسرت صداقته وانفصلت عنه بسبب اختلافكما في تفسير الهستيريا.. فما هو هذا الاختلاف؟.

فرويد: : كان (بروير) يؤثر أن ننحو في تفسير الهستيريا منحى فسيولوجيا. حيث كان يرى العمليات التي لم توفق إلى مصير سوىّ إنما نشأت إبان أحوال نفسية غير عادية شبيهة بحالة التنويم. أمّا أنا فكنت أميل إلى الاعتقاد بوجود قوى تتفاعل في ما بينها، ونوايا وميول تعمل على نحو ما يحدث في الحياة العادية. وهكذا تتعارض نظرية (بروير) «الهستيريا التنويمية» مع نظريتي (العصاب الدفاعي). «م: ١ ص: ٢٩». وأجد مناسباً هنا لأن أشير إلى أنني بقيت أكثر من عشرة أعوام بعد انفصالي عن (بروير) دون أتباع فكنت في عزلة تامة، وكان نصيبي الاعراض في فيينا وفي الخارج أيضاً.

+ : أشرت إلى العصاب الدفاعي، فكيف تفسر (العصاب)، هل تراه اضطراباًإنفعالياً، نفسياً، فسيولوجياً... أم ماذا؟.

فرويد: : إن ما يعتمل خلف مظاهر العصاب ليس اضطراباً إنفعالياً أيا كان. إنما هو دائمًا اضطراب ذو طابع جنسي،

سواء كان صراعاً جنسياً حالياً أم نتيجة خبرات جنسية مبكرة. (أم: ١، ص ٧٣٠).

فرويد: : ألا ترى أنك بردك الهستيريا إلى دوافع جنسية تعود إلى أولى بدايات الطب، إلى (فلاطون) الذي قرر أن الطب هو العلم بألوان الحب والرغبات الجسدية؟.

فرويد: : لقد أشرت صراحة إلى تأثري بذلك. وقد تجاوزت مجال الهستيريا وشرعت في فحص الحياة الجنسية لدى المرضى بما يسمى النيورواستنيا الذين كانوا يفدون على عيادتي زرافات. وهكذا تأديت إلى اعتبار العصاب دون استثناء اضطرابات للوظيفة الجنسية، وما يدعى العصاب الفعلي هو المظهر المباشر لحالة التسمم الناتجة من هذه الاضطرابات، في حين أن العصاب النفسي هو مظهرها النفسي. وقد طابت هذه النتيجة لضميري العلمي. وقد تمنيت أن أكون ملأت بذلك فراغاً في العلم الطبي. وأريد - حتى لا يساء فهمي - أن أقرر أنني لا أنكر وجود الصراع النفسي والعقد العصابية في النيوراستينا وكل ما هنالك أنني أرى أن أعراض أولئك المرضى لا تنشأ عن سبب نفسي. كما أنها لا تزول بالتحليل. ولكن لا بد أن تعتبر تسمماً نجم مباشرة عن اختلال في العمليات الكيميائية الجنسية. ولم يبقى إلا أن أصوغ ما لا حظته في اعتبارات، وبذلك وصلت إلى نظريتي في الكبت.

+ : وهل يعني هذا أنك كنت الأول الذي توصل إلى معرفة (الكبت)؟.

فرويد: : بالتأكيد. فلقد كانت عملية الكبت إبتكاراً لم يعرف له مثيل من قبل في الحياة النفسية. وأصبحت نظرية الكبت

الحجر الأساسي في فهمنا للعصاب. وأصبح لزاماً علينا أن نغير نظرتنا لمهمة العلاج. بل أن يكشف عن عمليات الكبت ويستعيض عنها بعمليات حكمة عقلية قد تنتهي اما بقبول ما نبذ من قبل أوبادانته. وقد أعربت عن إتخاذي هذا الاتجاه الجديد بإقلاعي عن تسمية طريقتي في الفحص والعلاج تطهيراً وأسميتها بدلاً من ذلك التحليل النفسي.

+ : الوظيفة الجنسية عند الأطفال، هل هي تغير فرضي لديك، أم أنك اهتديت إليها عملياً؟.

فرويد: : ان الوظيفة الجنسية موجودة منذ بدء حياة الفرد. وإن كشوفي المستغرية في الجنسية لدى الأطفال وصلت إليها في بادىء الأمر عن طريق تحليل الراشدين. ولكن أمكن فيما بعد (منذ حوالي سنة ١٩٠٨ وما بعدها) التحقق منها على أتم وأوفى وجه بالملاحظات المباشرة للأطفال. وإنه لمن اليسير حقاً أن يقتنع المرء بوجود نشاط جنسي مطرد لدى الأطفال حتى لا يسعه أن يتساءل في دهشة: كيف استطاع الجنس البشري أن ينجح في إغفال الحقائق واعتناق الأسطورة المستحبة، أسطورة لا جنسية الطفولة طوال ذلك الزمن؟ (م: ١، ص ٤٥).

+ : والأحلام؟.

فرويد: : تحقيق (مقنع) لرغبة (مكبوتة). وهي - كاى عرض عصابي - محاولات توفيق بين مطالب دافع مكبوت وبين مقاومة تبذلها قوة الرقابة في الذات. وهي مثل رائع للعمليات التي تجري في الطبقات اللاشعورية العميقة من النفس.

+ : قبل أن نتقدم خطوة أخرى نستخلص من حديثك بأن نظريات المقاومة والكبت واللاشعور، وقيمة الحياة الجنسية في تعليل المرض، وأهمية الخبرات في مرحلة الطفولة، هي العناصر الأساسية التي يتكون منها البناء للتحليل النفسي.

فرويد: : صحيح تماماً.

+ : حسناً. تقول في كتابك (الجنس) ما نصه:

يظهر لي أن النمو الحالي للجنس البشري لا يحتاج إلى أي تفسير يغاير ما ينطبق على الحيوان. فإن ما يظهر في أقلية من الأفراد كحافز قلق لمزيد من الكمال يمكن فهمه كنتيجة لغرائز فاشلة بني عليها أسمى ما في الثقافة البشرية من قيم.

فما هو رأيك بالابداع الفني؟

فرويد: : أن التسامي Sublimation هو العملية المؤدية مباشرة إلى الإبداع الفني. فحين يتعذر الإشباع الكامل للرغبات الجنسية في الحياة الواقعية يتحول مجرى الطاقة إلى نشاطات أخرى هي عمليات الخلق والإبداع الفني في حالة الفنانين. إن هناك رابطة بين الدافع إلى البحث وبين الدافع الشبقي. ويلقى الدافع الشبقي عادة كبتاً حسب ما تقتضي به النظم الاجتماعية. ومن ثم يحدث أن يعم هذا الكبت دافع البحث أيضاً. وتكون النتيجة حياة فكرية ضيقة الأفق. ويحدث أحياناً أن يعجز الكبت عن الاضرار بدافع البحث، بل ويعجز أيضاً عن غمر جزء هام من الدافع الشبقي إلى التسامي.

+ : هذا يعني ـ تأسيساً على وجهة نظرك ـ أن الفنان كالعصابي.

فرويد: : الفنان ينسحب من واقع لا يرضي إلى دينا الخيال، ولكنه يختلف عن العصابي بكونه يعرف كيف يقفل منه راجعاً ليجد مقاماً راسخاً في الواقع. ومنتجاته، أعني الأعمال الفنية، إشباع خيالي لرغبات شعورية شأنها شأن الأحلام، وهي مثلها محاولات توفيق، حيث أنها بدورها تجهد كي تتفادى أي صراع مكشوف مع قوى الكبت. ولكنها تختلف عن منتجات الحلم النرجسية الاجتماعية من حيث أن المقصود بها أثاره اهتمام الغير وأن بوسعها أن تستثير وترضي فيهم بدورهم الرغبات اللاشعورية نفسها. وزيادة على ذلك فهي تستفيد من اللذة الحسية للجمال الشكلي بوصفها (جائزة مغرية). وإن ما يفعله التحليل النفسي هو أن يأخذ العلاقات المتبادلة بين ما تأثر به الفنان في حياته وخبراته ومنتجاته، ويستلخص منها نفسيته وما يعتمل فيها من دوافع.

+ : انسجاماً مع نفس المنطق، فإنك تعتبر طفولة (دافينشي) ذات الطابع الشبقي هي العوامل المحددة لسلوكه. فما فشل (ليوناردو دافينشي) في تكوين علاقات عاطفية ناضجة، والجنسية المثلية عنده، وابتسامة الموناليزا، واتحاد الأنوية والذكورة في لوحة يوحنا المعمدان، وانشغاله في محاولاته الفنية المبكرة بتصوير رؤوس نساء باسمات، إلا ـ من وجهة نظرك ـ كون (دافينشي) كان أسير إبتسامة أمه وأنوثتها التي انفصل عنها في سن مبكرة.

فرويد: : يقول (موتر) عن (دافينشي):

لقد رسم (ليوناردو من الجراد آكل الإنجيل، باخوس أبولو، الذي ينظر إلينا بابتسامته الغامضة على شفتيه، وبساقيه المتقاطعتين الناعمتين ـ بعينين ساحرتين). إن هذه

الصور تنفث تصرفاً في السر الذي لا يجرؤ المرء على النفاذ إليه. فالمرء يستطيع ـ غالباً ـ أن يبذل الجهد لإقامة صلة ذلك بأعمال (ليوناردو) المبكرة. فالأشخاص فيها مخنثون، إنهم صبيان وسام، يتسمون بالرقة، ولهم أشكال أنثوية، انهم لا ينكسون رؤوسهم وإنما يحملقون في غموض بنظرة انتصار، كما لو كانوا يعملون عن حادثة هائلة سعيدة، وعليهم أن يحفظوها في كتمان وتقودنا الإبتسامة الفاتنة المألوفة إلى أن نستنتج أنه سر حب. ومن الممكن أن يكون (ليوناردو) قد أخفى في هذه الأشكال تعاسة حبه، وهزمها بفنه، حيث مثل تحقيق رغبة الصبي الذي فتنته أمه في وحدة هائلة للطبيعة الذكرية والأنثوية. ولنكن على يقين من أن الأب أيضاً كانت له أهمية في تطور (ليوناردو) من الناحية النفسية الجنسية، والأكثر من ذلك أن تلك الأهمية لم تكن بمعنى سلبي أثناء غيبة الأب خلال السنين الأولى من طفولة الصبي، وإنما كانت أهمية مباشرة أثناء حضوره في طفولته المتأخرة. إنه لا يستطيع الإمتناع ـ وهو طفل يرغب أمه ـ عن الرغبة في أن يضع نفسه في مكان أبيه، وأن يمثل نفسه به في مخيلته، وأخيراً أن يجعل مهمة حياته أن ينتصر عليه. (م: ٢، ص: ٦٨ ـ ٧٢).

+ : ولكنك تشير إلى أن حديثك عن (دافينشي) لم يتناوله إلا من ناحية الباثوجرافيا. وهذه لا تكشف عن نواحي النبوغ لدى (دافينشي) العظيم، لأن منهج التحليل النفسي لا يستطيع إطلاعنا على طبيعة العمل الفني (م: ٧ ص ١٢٨).

فرويد: : هذا صحيح ولكن ينبغي تثبيت نقطة هامة هي أنه في

الفن وحده يندفع الانسان بفعل رغباته اللاشعورية فينتج ما يرضي أو يشبع هذه الرغبات خذ مثلاً (ديستويفسكي) ـ ففي شخصيته الخصبة التي تتم وجوه: الفنان الخالق، والأخلاق، والعصابي. والآثم ـ فإن الصلة التي لا يمكن أن يخطىء المرء إدراكها بين قاتل الأب في الأخوة كارامازوف ومصير (ديستويفسكي) نفسه قد هزت أكثر من واحد من كتاب السير. وأدت بهم إلى الرجوع إلى مدرستنا (التحليل النفسي) لقد كان الحكم على (دستويفسكي) بالإعدام ـ كسجين سياسي ـ حكمًا ظالماً. ولا بد أنه كان يعلم ذلك، لكنه قبل هذا العقاب الذي لم يكن يستحقه بين يدي الأب البديل ـ القيصر ـ كعوض عن العقاب الذي يستحقه على خطيئته ضد أبيه الفعلي. فهو بدلاً من أن يعاقب نفسه، عوقب بواسطة أبيه الفعلي. (م: ٢).

+ : انك تربط الإبداع الفني بالكبت والجنس والعصاب. وإنك تعتبر عقدة أوديب هي العقدة الرئيسة للأمراض العصابية. وتقرر بأن الاعتراف بعقدة أوديب أصبح المبدأ الأساس الذي يميز أتباع التحليل النفسي عن خصومه (م: ٣، ص: ٢٧٨) وإنك تقرر أيضاً بأن عقدة أوديب تمثل القمة التي يصل إليها النشاط الجنسي الطفلي، والتي تؤثر في نتائجها تأثيراً حاسمًا على النشاط الجنسي للراشدين. وإن كل شخص يصل لأول مرة إلى هذا الكوكب يجابه مهمة التغلب على عقدة أوديب، التي هي جوهر الغصاب ولبّه (م: ٩). وكل فرد يفشل في ذلك يقع فريسة العصاب. وتقرر أخيراً بأن عقدة أوديب تبدو في حضارتنا على أنها نهاية حكم عليها أن تكون مرعبة

(م: ١٠، ص: ١٨٩). فكيف توصلت إلى هذه الأحكام؟.

وبالمناسبة كنت أنت قد حلمت في صباك بأنه قد نحت لك تمثال كتب عليه: (إلى من حل لغز أبي الهول وكان أشد الرجال اقتداراً!).

فرويد : (أوديب ملكاً) تدخل بين ما يعرف باسم مأساوية القدر. ويقال أن تأثيرها المأساوي يقوم بالتضاد بين مشيئة الآلهة القاهرة، وبين محاولة الانسان سدى أن يجنب نفسه الويل الذي يتهدده. وإن الدرس الذي يخرج به من شهد المسرحية هو الاستسلام لمشيئة الآلهة والاعتراف بالضعف الانساني.

فإذا كانت (أوديب ملكاً) تهز اليوم معاصرينا مثلما هزت من عاصرها من الإغريق، فلا تفسير لذلك الآن إلا أن وقعها لا يقوم على ما بين القدر وإرادة الانسان من التضاد، وإنما ينبغي أن نلتمس سر هذا الوقع في طبيعة المادة التي تشخص بها هذا التضاد. إن النبوءة قد صبت علينا ـ ولما نولد ـ تلك الدعوة التي صبت عليه فلعله قد قدر علينا جميعاً أن نتجه بأول نشاطنا الجنسي جهة الأم، وبأول البغضاء ورغبة الدمار جهة الأب. وأحلامنا تقنعنا بأن الأمر كذلك. إن أسطوره أوديب قد نبعت من مادة حلمية قديمة أزلاً. متصلة بهذا الاضطراب الأليم الذي ينتاب علاقة الطفل بوالديه من جراء نزعاته الجنسية الأولى. ذلك ما نجده في نص مأساة (سوفوكليس) من إشارة لا شك فيها، فها هي ذي (يوكاستا) ترفه عن أوديب ـ ولم يكن قد استنار بعد ولكن

ذكرى النبوءة أخذت تشيع الاضطراب في نفسه ـ فإذا هي تشير إلى حلم يأتي حقيقة أناساً كثيرين، ولكن دون أن يعني ذلك ـ في زعمها ـ شيئاً.

(كم من مائت قبلك ضاجع في الحلم أمه، ولكن يسهل عبء العيش لمن لم يلق إلى ذلك بالاً).

واليوم كما في ذلك الوقت يحلم الكثيرون بمضاجعة الأم ويرون أحلامهم مستنكفين متعجبين. ومن السهل أن نفهم أن هذا الحلم هو مفتاح المأساة والجزء المكمل للحلم بموت الأب. فقصة الملك أوديب استجابة من المخيلة إلى هذين الحلمين النمطين. وكما أن هذه الأحلام تصحبها ـ حين تقع للراشدين ـ مشاعر شتى من النفور، فقد حق كذلك أن تضم الأسطورة في طياتها الارتياع وإيقاع العقاب بالنفس. وأما التحوير الذي يجيء بعد ذلك فنشوءه مرة أخرى أن المادة تراجع هنا أيضاً مراجعة ثانوية خاطئة تهدف إلى استخدامها في أغراض لاهوتية (م: ٤، ص: ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

\+ : يعزو البعض أن اهتمام (شكسبير) بكتابة المأساة يرجع إلى أنه ـ شكسبير ـ شعربهوة عميقة بينه وبين الحياة التي بدأت ترسخ سلطة الاقطاع. أما أنت فإنك تخضع هاملت شكسبير لنفس عقدة أوديب.. فما هي أسباب تردد هاملت من وجهة نظرك؟.

فرويد : ما هي أسباب هذا التردد، **ذلك ما لا يثبت النص** بحرف عنه. وبذلك في تفسيره **محاولات لا تحصى فما أتت** بطائل. فهاملت في نظر (**فيلهم مايشتر**) **أصلها (جوته)** ولاتزال لها الغلبة حتى اليوم **بمثل هذا الطراز من الرجال**

الذين شلت عندهم القدرة على العمل المباشر بفعل نمو العقل نمواً مفرطاً. وفي نظرة أخرى أن الشاعر أراد أن يصور لنا مريضاً مذبذباً شارف النوراستانيا. بيد أن المسرحية ترينا أن هاملت بعيد كل البعد عن أن يصور في صورة إنسان فقد كل قدرة على العمل. فنحن نراه يعمل مرتين: الأولى في ثورة مباغتة حين يطعن السامع المسترق من وراء الستار، والثانية فعن قصد مبيت بل في مكر جم، وذلك حين يرسل برجلي البلاط إلى الموت الذي كان مدبراً له هو. مبدياً في ذلك كل التحلل الخلقي الذي يمكن أن يتصف به أمير من أمراء عصر النهضة. فما الذي يوقفه على هذا النحو في إنفاذ المهمة التي كلفه بها شبح أبيه؟. الجواب نجده مرة أخرى في الطبيعة الخاصة لتلك المهمة. إن هاملت يستطيع أن يأتي كل شيء إلا أن يثأر من الرجل الذي أزاح أباه، واحتل مكانته عند أمه. الرجل الذي يريه - إذن - رغباته الطفيلية وقد تحققت. وهكذا يحل عنده محل الاستبشاع الذي كان كفيلاً أن يدفعه إلى الانتقام، تأنيب النفس وتخوف الضمير يذكره انه لا يفضل بحرف ذلك الخاطيء الذي كلف بعقابه. وأنا إذ أقول ذلك أترجم في عبارة شعورية ما كان مقرراً بقاءه لا شعورياً في نفس البطل. **فإذا أراد البعض أن يدعو هاملت هستيرياً، لم أجد إلا أن أسلم بأن تلك نتيجة تخرج من تفسيري، ويتسق وذلك أحسن الاتساق ما يعرب عنه هاملت مع أوفيليا من نفور من الحياة الجنسية. هذا النفور الذي كان مقدراً أن يزيد على الدوام، تمكنا من نفس الشاعر في مستأنف سنواته حتى بلغ التعبير عنه أقصاه في (تيمون الأثيني). فما يطالعنا في هاملت بالطبع هو الحياة النفسية**

(لشكسبير). وإني ألاحظ في كتاب (جورج براندس ١٨٩٦)، قوله: أن (شكسبير) كتب هذه المسرحية فور موت أبيه ـ ١٦٠١ ـ أي حين كانت وطأة الحزن عليه في أشدها وحين بعثت في نفسه من جديد ـ كما يحق لنا افتراضه ـ مشاعره الطفولية نحو والده. ومن الأمور المعروفة كذلك أن والد (شكسبير) الذي مات في سن مبكرة كان يحمل إسم (هامنت) وهو ما يطابق هاملت (م: ٤، ص: ٢٨٠ ـ ٢٨١).

+ : طبقاً لوجهة نظرك فإن أوديب سوفوكليس وهاملت شكسبير والأخوة كارامازوف لدستويفسكي، تتعرض جميعها لموضوع واحد هو قتل الأب، وإن الدافع لذلك هو المرأة الأم.

فرويد : ان أكثر الأمور صراحة هو بالتأكيد تمثل المأساة المشتقة من الأسطورة اليونانية، ففيها نجد أن البطل نفسه هو الذي يرتكب الجريمة، ولكن المعالجة الشعرية تكون مستحيلة دون تهذيب وتخفيف. فالاعتراف المكشوف بنية ارتكاب جريمة قتل الأب يبدو غير محتمل بدون إعداد تحليلي. فالمأساة اليونانية تقدم ـ مع احتفاظها بالجريمة ـ التخفيف اللازم للعبارات، بطريقة فنية بواسطة إسقاط الدافع اللاشعوري للبطل، في الواقع، في صورة إكراه من القدر قد انتقل إليه. يرتكب البطل فعلته بدون قصد، وهو يرتكبها في الظاهر تحت تأثير امرأة، ويؤخذ هذا العنصر الأخير ـ مع ذلك ـ في الاعتبار، في الظرف الذي يستطيع فيه البطل فحسب أن يصل إلى امتلاك الملكة الأم، بعد أن يكون قد كرر فعلته عن التنين الذي يرمز للأب. والبطل، بعد أن يكتشف ذنبه ويصبح

شعورياً، لا يقوم بأية محاولة لمسامحة نفسه بالاستشهاد بالحيلة المصطنعة عن قهر القدر. إنه يسلم بجريمته ويعاقب عليها، كما لو كانت قد تمت على مستوى شعوري تماماً. وهو ما يبدو لعقلنا ظلمًا، وإن يكن صحيحاً تماماً من الناحية النفسية.

أما في مسرحية هاملت فالتمثل غير المباشر أكثر من ذلك. فالبطل لا يرتكب الجريمة بنفسه، إنما الذي نفذها شخص آخر، لا تعتبر الجريمة بالنسبة له جريمة قتل أب. فالدافع الحقيقي للمنافسة الجنسية على المرأة لا يحتاج من ثم إلى تخفيف. ونحن نرى عقدة أوديب عند البطل في ضوء معكوس حينما نعلم الأثر الواقع عليه من الجريمة التي ارتكبها الآخر. فلا بد أن ينتقم لهذه الجريمة. ولكنه يجد نفسه عاجزاً - بصورة غريبة - عن ذلك. ونحن نعلم أن شعوره بالذنب هو الذي يعوقه، غير أن الشعور بالذنب يفسح مكاناً - بطريقة تتمشى تماماً مع العمليات العصابية - لإدراك عدم كفايته لإنجاز مهمته. فهناك دلائل على أن البطل يحس بالذنب كفرد فائق. إنه يحتقر الآخرين بدرجة لا تقل عن احتقاره لنفسه.

أما الأخوة كارمازوف فتخطو خطوة أبعد في نفس الاتجاه. ففيها أيضاً ترتكب الجريمة بيد إنسان آخر. مع ذلك فهذا الشخص الآخر تربطه بالرجل المقتول نفس علاقة البنوة التي تربطه بالبطل ديمتري، ودافع المنافسة الجنسية في حالة الشخص الآخر معترف به صراحة، إنه أخو البطل وإنها لحقيقة ملحوظة. إن (دستويفسكي) قد نسب إليه مرضه هو - أي الصرع المزعوم - كما لو كان يسعى إلى الاعتراف بأن الجانب الصرعي - أي العصابي

- فيه كان هو مرتكب جريمة قتل الأب. (م: ٢، ص: ١٠٩ - ١١١).

+ : حسناً. دعنا ننتقل إلى موضوع آخر... إلى النصف الآخر... المرأة..... ما هو رأيك فيها؟.

فرويد : لقد عرفنا من اشتغالنا بالتحليل النفسي أن جميع النساء يشعرن بأنهن أوذين في طفولتهن وإنهن - لخطأ لم يرتكبنه - كن موضوع الاستهانة، كما سلبن جزءاً من جسمهن، وتمتليء نفوس كثيرات من الفتيات بالمرارة حيال أمهاتهن. ويلمنهن لسبب لا مفر منه، وهو أنهن جلبنهن لهذا العالم أناثاً بدلاً من أن ينجبنهن ذكوراً. (م: ٣، ص١١٧).

+ : والحب؟.

فرويد : بين حياة الحب عندنا وبين حياة الحب عند الأقدمين هناك فرق يتوضح بالحقيقة التالية، وهي أن الأقدمين كانوا يهتمون بالغريزة ذاتها، بينما نحن نهتم بموضوعها. وكان الأقدمون يعظمون الغريزة، وكانوا مستعدين أن يبجلوا من أجلها أي موضوع حتى ولو كان حقيراً. بينما نحن نحتقر النشاط الغريزي في ذاته. ونلتمس الأعذار له فقط بسبب جدارة الموضوع.

: وفي هذا المجال فإن ما يدور بخلدي هي النظرية التي وضعها أفلاطون بين شفاه (أرسطو طاليس) في كتابه (المأدبة). وهي النظرية التي لا تعالج أصل الغريزة الجنسية فحسب، بل تعرض أيضاً لأهم أشكالها في ماله صلة بالموضوع الذي تنصرف إليه حيث يقول:

: «إن طبيعة الانسان الأصيلة لم تكن كما هي الآن. بل كانت مختلفة جداً لاختلاف عما هي عليه في الوقت

الحاضر. فقد كان الناس أول الأمر منقسمين إلى ثلاث أجناس، لا إلى إثنين كما هم الآن، كان هناك جنس الرجال وجنس النساء وجنس ثالث يجمع بين خصائص الأنثى وخصائص الذكر، وكان كل شيء مزدوجاً في هذه المخلوقات البدائية، كان لكل منها أربع أيدٍ وأربع أقدام ووجهان وعورتان، الخ... حتى قرر الآله (زيوس) يوماً أن يشطر هذه المخلوقات شطرين. لكن الذي وقع بعد هذا التقسيم أن كل شطر من الشطرين كان يشتهي نصفه الآخر. وكانا إذا ما التقيا التفت الأذرع منها حول بعضها وتعانقا عناقاً عنيفاً كي يستعيدا وحدتهما. وكان العناق يطول حتى لقد كانا يتركان أنفسهما على هذه الحال حتى يموتا من الجوع وبسكون. لأن كل نصف كان يعانق كل شيء لا يشاركه فيه النصف الآخر).

: وقد وصلنا من تأملاتنا إلى أن الحب كان يفعل فعله منذ بدء الحياة، وإلى أنه يبدو كغريزة للحياة مقابل غريزة الموت منذ أن نفخت الحياة في المادة الجامدة. وقد كنا نلتمس من تأملاتنا هذه حلاً لألغاز الحياة. فذهبنا إلى أن هاتين الغريزتين كانتا تصطرعان منذ بدء الخليقة. (م: ٥، ص: ٩٨ - ١٠٣).

: بخصوص غريزتي الحياة والموت، هناك نظرية للعالم الألماني «وايزمان» (١٨٣٤ - ١٩١٤)، حاول فيها أن يقدم تفسيراً بايلوجياً - وأنت متأثر بعلماء البايلوجي - للموت عند الكائنات العضوية. فقد قام بتقسيم المادة الحية إلى جانب فانٍ وجانب خالد. والجانب الفاني هو الجسم في أضيق معانيه. أما الخلايا التناسلية فإنها خليقة

بالخلود بمعنى أنها تستطيع إذا واتتها الظروف أن تتحول إلى فرد جديد، أو بعبارة أخرى أن تحيط نفسها بجسم جديد، أي أن (وايزمان) ميز بين جانب كتب عليه الموت هو البنية أو الجسم، وبين الخلية التناسلية التي تختص بالجنس والوراثة. وإن نظريتك عن الغرائز ميزت - هي الأخرى - بين نوعين منها هما غريزة الحياة - بضمنها غريزة الجنس - وغريزة الموت. ألا يبدو ما تقدمت به بديلاً ديناميكياً للنظرية التي قال بها (وايزمان)؟.

فرويد : نعم صحيح. ولكن الرأي الذي وصلنا إليه. من سبيل يختلف عن السبيل الذي سلكه (وايزمان) تمام الاختلاف، خاصة في ما يتعلق بآراء (وايزمان) في مشكلة الموت. (فوايزمان) لا ينسب التمييز بين البدن الفاني وبين خلية التناسل الخالدة إلا للكائنات العضوية الكثيرة الخلايا. أما الكائنات ذات الخلية الواحدة فماتزال فيها الخلية الفردية والخلية التناسلية خلية واحدة لا تفرقة بينهما ولا تمييز. ومن ثم ذهب (وايزمان) إلى أن الكائنات العضوية الوحيدة الخلية خالدة بالقوة، وإلى أن الموت لا يظهر إلا بظهور الكائنات ذات الخلايا الكثيرة. أي أن الموت الطبيعي - بمفهوم وايزمان - يلازم حياة الحيوانات العليا. وهذا يعني بأن الموت كان أمراً لم تعرفه الكائنات العضوية إلا في عصر متأخر.

+ : لقد وصفت عصاب القهر بأنه دين خاص مشوه، والدين بأنه عصاب قهري عام. هل يعني هذا أنك لا تؤمن بالدين؟.

فرويد : إننا حاولنا أن نحدد للدين مكانة في تاريخ تطور الإنسانية

ليبدو أنه كسب خالد، بقدر ما يبدو أنه نظير للمرض النفسي الذي لا بد أن يجتازه الانسان المتحضر وهو يتطور من الطفولة إلى سن النضج، وكان التحليل النفسي آخر ما تصدى بالنقد للنظرة الدينية إلى الكون، إذ رد أصل الدين إلى عجز الطفولة وقلة حيلتها، كما رد مضمونه إلى بقاء رغبات الطفولة وحاجتها حتى سن النضج. وهذا لا يتضمن على التحديد دحض الدين، لكنه تهذيب ضروري لمعلوماتنا عنه. على أننا لا نتناقض مع الدين إلا حين يدعي أنه ذو أصل إلهي. (م: ٦، ص: ١٥٨ ـ ١٥٩).

+ اذا كان تاريخ نشوء غريزتي الحياة والموت يعود ـ من وجهة نظرك ـ إلى اللحظة التي نفخت فيها الحياة في المادة الجامدة. فأين يبدأ تاريخ نشوء الدين؟.

فرويد في التصور البدائي للكون للذي ينسب الإرادة للجمادات مبدأ المغالاة في تقدير أهمية الواقع النفسي، واكتشفت مبدأ (القدرة المطلقة للأفكار) الذي يوجد بدوره في أساس السحر. ومضيت في مقارنته نقطة فنقطة بعصاب الوسواس القهري، فبينت أن كثيراً من مسلمات الحياة النفسية البدائية لاتزال فعّالة في ذلك الاضطراب الغريب. ولكن كثيراً ما اجتذبتني في الطموطمية ـ أول أساليب النظام الاجتماعي في القبائل البدائية ـ أسلوب اتحدت فيه بدايات النظام الاجتماعي بدين ساذج، وسيطرة صارمة لعدد ضئيل من نواهي التابو. في ذلك النظام الكائن المقدس هو دائمًا وأبداً حيوان تدعي القبلية أنها انحدرت منه. ومن الدلائل الكثيرة ثبت أن كل جنس من الأجناس أياً كانت درجة رقيه قد مر لا محالة

بطور الطموطمية. كانت نقطة بدايتي هي ذلك التقابل البارز بين الأمرين اللذين حرمتهما الطموطمية، أعني (تحريم قتل الطوطم وتحريم الاتصال الجنسي بأية امرأة من عشيرة الطوطم نفسها) وعنصري عقدة أوديب (قتل الأب واتخاذ الأم زوجاً). ولم يبق إلا القليل كي أقرر أن قتل الأب هو نواة الطموطمية ونقطة البداية في نشأة الديانة. (م: ١، ص ٧٧ ـ ٧٨).

+ لنتحدث عن السياسة: لقد كان (فلهلم رايش) أحد المقربين إليك، حيث كان عضواً في جمعية فيينا للتحليل النفسي عام ١٩٢٠. ولكنه اضطر في ما بعد إلى أن ينفصل عن التحليل النفسي لأسباب سياسية، لأن (رايش) كان عضواً في الحزب الشيوعي النمساوي ثم عضواً في الحزب الشيوعي الألماني الذي قرر طرده باعتباره مضاداً للثورة. فهل لحركة التحليل النفسي موقف سياسي معين؟.

وبالمناسبة لقد وصفك (براون) بأنك خير معبر عن برجوازية فيينا. في حين يعتبرك (رايش) ثورياً وناقداً للأخلاق البرجوازية ويتفق معك في دور الجنس في حياة الانسان والتطور الاجتماعي بشكل عام، فأنت تعتبر الغريزة الجنسية:

«هي السيد المطاع الذي يسيطر على الأفراد والأمم. وكثيراً ما يتوقف تاريخ الشعوب والأسر على الأهواء التناسلية». (م: ٣، ص: ١٢٩٨).

وإن (رايش) عزى سبب الحرب العالمية العظمى إلى الحياة الجنسية غير المشبعة للقيصر وللأرستقراطية.

فرويد : هنا يجب أن أجيب عن ثلاثة أسئلة، (رايش) والجنس والماركسية. في ما يتعلق بقولي أعلاه عن الجنس، فإن المعارضين لنا أعلنوا بعد انتهاء الحرب العظمى عام ١٩١٨، أن الأحداث تمخضت عن برهان قاطع بنفي صحة التحليل النفسي. قالوا: إن عصاب الحرب أثبت أن العوامل الجنسية ليست ضرورية في تقليل الاضطرابات العصابية. بيد أن انتصارهم كان فجاً. فمن ناحية، لم يستطع أحد أن يقوم بتحليل كامل لحالة واحدة من حالات عصاب الحرب. فلم يعرف أي شيء معرفة أكيدة بخصوص الدوافع، ولم يكن بوسع أحد أن يخلص من هذا الجهل بنتيجة ما.

وبالنسبة (لرايش) فقد كنت مدير تحرير المجلة الدولية للتحليل النفسي. وكنت قد استلمت بحثاً (لرايش) ترددت كثيراً في نشره مع التعليق التالي الذي أضيف باسم هيئة التحرير: (ثمة ظروف خاصة تدعو الناشر إلى أن يلفت نظر القارىء لنقطة يأخذها عادة مأخذ التسليم. إن هذه الصحيفة في إطار التزامها بالتحليل النفسي تعطي لكل كاتب من كتابها الحرية الكاملة في إبداء رأيه الخاص، ومن ثم فإنها غير مسؤولة على الإطلاق عما تتضمنه هذه المقالات من آراء خاصة بأصحابها. ولكن بالنسبة لمقال دكتور (رايش) فإننا نريد أن نحيط القارىء علمًا بأن كاتب المقال عضو بالحزب البلشفي. من المعروف الآن أن البلشفية تفرض على البحث العلمي قيوداً وحدوداً تماثل ما تفرضه الكنيسة).

أما عن الماركسية، فإن بعض القضايا في نظرية (ماركس) تبدو غريبة في نظري، كالقول بأن تطور

أشكال المجتمع يخضع لقوانين طبيعية، وان التغييرات التي تتناول الطبقات الاجتماعية يصدر بعضها عن بعض نتيجة لعمليات جدلية ومنطقية. إنهم - الماركسيون - يميلون إلى أن يرجعوا الطبقات في المجتمع إلى الصراع الذي يقوم، منذ بدء التاريخ، بين مختلف العشائر، فقد كانت تلك العشائر يختلف بعضها عن بعض اختلافاً طفيفاً. والرأي عندي أن الفوارق الاجتماعية ترجع إلى هذه الفوارق الأصيلة بين القبائل أو السلالات. أما ما كان يرجح كفة النصر فعوامل نفسية كمبلغ العدوان المجبول في النفوس، أو درجة التماسك بين أفراد العشيرة. وعوامل مادية كامتلاك أسلحة أمضى وأفضل. حتى إذا ما قدر للعشائر المختلفة أن تعيش معاً على صعيد واحد، أصبح المنتصرون سادة والمهزومون أرقاء. وليس في هذا كله ما يشير إلى قوانين طبيعية وإلى تطور الأفكار.

ومن جهة أخرى لا يفوتنا أن نعترف بما لتحكم الانسان المطرد في قوى الطبيعة من تأثير بالصلات الاجتماعية بين الناس. ذلك أن الناس جبلوا على أن يضعوا كشوفهم العلمية الجديدة طوع ما لديهم من حاجة إلى العدوان، فيستخدمونها بعضهم ضد بعض.

فاكتشاف المعادن والبرونز والحديد قضى على بعض عصور الحضارة وما يصحبها من تنظيمات إجتماعية. كما اعتقد في الواقع أن البارود والأسلحة النارية قلبت عهد الفروسية وأطاحت بسيطرة الطبقة الأرستقراطية. وإن الأستبداد الروسي كان مقضياً عليه حتى قبل أن يخسر الروس الحرب. لأن أي قدر من التزاوج بين الأسر

الحاكمة بأوربا، لم يكن يتسنى له أن ينجب سلالة من القياصرة تستطيع أن تثبت أمام القوة المتفجرة للديناميت.

+ : هناك من يصف نظريتك بأنها تشاؤمية. ويدلل على ذلك بما جاء في كتابك (مستقبل وهم «the future of an allusion») فهل كان لفلسفتي (نيتشه وشوبنهور) تأثير عليك.؟

فرويد : أن الاتفاق الكبير بين التحليل النفسي وبين فلسفة (شوبنهور) لا ينبغي أن يرد إلى وقوفي على تعاليمه. فقد قرأت (شوبنهور) في وقت جد متأخر من حياتي. أما (نيتشه) ذلك الفيلسوف الذي طالما تتفق تخميناته وأحداسه إتفاقاً عجيباً مع كشوف التحليل النفسي الشاقة، فقد تجنبته زمناً طويلاً لنفس السبب. (م: ١، ص: ٦٩).

+ : دكتور فرويد، هل تؤمن بالأرقام السحرية؟.

فرويد : مثلاً؟

+ : السبعة، فالحكماء سبعة. وكنائس آسيا سبع. والليالي التي أهلكت قوم (عاد) سبع. وإن (أهورا مزدا) - الذي وصفه (زرادشت) - وأنت مولع به - له سبع صفات: النور والعقل الطيب والحق والسلطان والتقوى والخير والخلود. ووصايا الكنيسة سبع: إسمع القداس أيام الآحاد والأعياد والمأمور بها، وهي الصوم الكبير وسائر الأصوام المفروضة، وانقطع عن الزفر يومي الأربعاء والجمعة، واعترف بخطاياك للكاهن ولو مرة في السنة، وتناول القربان المقدس ولو في عيد الفصح، وأوف البركة وامتنع عن الإكليل في الأزمنة المحرمة.. وعجائب الدنيا سبع. والفضائل سبع. والقناديل سبع التي ترشد الناس

إلى طريق الخلاص في الكوميديا الإلهية سبع. وختم سليمان ذو رؤوس سبعة. وهناك عادة متبعة عند قبائل البونيرو ـ وهذه تهمك جداً ـ تقوم على اختيار ملك زائف كلّ عام من عشيرة معينة بالذات. وهم يفترضون أنه يتقمص شخصية الملك الراحل، ويباح له بذلك الاتصال جنسياً بأرامله في المعبد الذي دفن فيه الملك، ثم يقتلونه بعد أن يحكم سبعة أيام. وإن البقرات العجاف والسمان سبع. وقد اعتبرت ـ في كتابك تفسير الأحلام ـ البقرات السبع السمان التي أكلتها البقرات السبع العجاف بديلاً رمزياً لسبع سنين من المجاعة، ولكل إله أو ملك سبع أرواح. وإن سفر الرؤيا يذكر أن الله يوم القيامة يفتح كتاب الأقدار ويفض الأختام السبعة...

فرويد : فيما عدا الأختام السبعة فليست لي علاقة بالرقم سبعة. والأختام السبعة هي، أنا و: جونز، أينجونْ، ابراهام، رانك، ساكس، وفرنتزى. وقد أهديت لكل واحد منهم حجراً أثرياً ليرصع به خاتماً، رمزاً للرباط الوثيق بضم حركة التحليل النفسي.

\+ : وأنا متفق معك بأنه ليست لك علاقة بالرقم سبعة. ولكن علاقتك برقم سحري آخر هو (٣) فهناك أكثر من ثالوث في نظريتك.

فرويد : كيف؟.

\+ : أحسب معي لو تكرمت:

: لقد قسمت الشخصية إلى ثلاث أقسام هي: الأنا والأنا الدينا والأنا العليا.

: والعقل من وجهة نظرك ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي: الشعور وما قبل الشعور واللاشعور.

: والمناطق الشهوية في الجسم ثلاث هي: الفم والمخرج والأعضاء التناسلية. (وبالمناسبة فإنك تفحص إن كان التدخين فمياً لأننا نمسك السيكارة بفمنا، أو أنه شرجي لأن السيكارة تخلف رماداً، أو أنه تناسلي بسبب شكل السيكارة!).

: ومراحل النمو الجنسي ثلاث هي: مرحلة قبل التناسلية ومرحلة الكون، والمرحلة التناسلية

: وإن عقدة أوديب لها ثلاث حالات: سالبة أو موجبة أو مقلوبة.

: والنظام والبخل والعناد صفات ثلاث للشخصية توجد معاً بانتظام.

: والدوافع ثلاثة أصناف. سادية ومازوخية ونرجسية. هه، كم أصبح العدد؟

فرويد : سبعة!

\+ : حسناً لا أطلب تفسيراً لذلك، ولكن يصف البعض نظريتك ومنهجك في البحث كالبيت الذي كتب على واجهته: (أهجروا كل منطق يا من تدخلون هنا). أي أن المعايير العلمية لا تنطبق على التحليل النفسي. وبالتالي فإن التحليل النفسي ليس علمياً، بل هو خليط من احتمالات بعيدة صيغت في براعة على نحو يجعلها تبدو معقولة للبعض.. فما هو رأيك؟.

فرويد : لقد بدا لي أن الحائل الرئيس دون تسليم المناوئين

بالتحليل النفسي، أنهم اعتبروه نتائج شطحاتي الخيالية، وأصروا على الا يؤمنوا بالعمل الطويل المثابر غير المتحيز الذي أدى إليه. وحيث أن التحليل النفسي لا شأن له في زعمهم بالملاحظة أو التجريب، أحلوا لأنفسهم رفضه دون تجريب. في حين أن غيرهم ممن كانوا أقل يقيناً بتلك الحجة، كانوا في مقاومتهم يصطنعون الحيلة القديمة، وأعني رفض النظر من خلال الميكرسكوب حتى يتجنبوا رؤية ما أنكروه.

+ : ولكنك تقول عن أعمالك ما نصه:

: «ولعل بعضهم يسألني عن مدى اقتناعي بصحة الفروض التي قدمتها. وجوابي على هذا إنني أنا نفسي غير مقتنع بها. ولا أطلب من الآخرين أن يؤمنوا بها. وبعبارة أفضل إنني لا أعرف مدى إيماني بها». (م: ٣، ص: ١٤٨).

فرويد : مع ذلك فإنني حين أنظر إلى ما أديته من أعمال، أجد نفسي إنني وضعت كثيراً من البدايات. وأوحيت بكثير من الأمور التي سيخرج منها شيء في المستقبل. ولو أنه لا يسعني أن أتكهن كثيراً أم قليلاً عما سيكون، وأنني أعرب عن رجائي في أن أكون قد شققت الطريق إلى تقدم هام في المعرفة الانسانية.

(م: ١، ص: ٨١).

+ : شكراً. وسنحاول منك في القسم الثاني من هذا البحث استقصاء ذلك..

المصادر

١ ـ فرويد، سيجموند. حياتي والتحليل النفسي. ترجمة مصطفى زيور وعبد المنعم المليجي، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٩٦٧.

٢ ـ التحليل النفسي والفن، دافينشي ـ دستويفسكي. ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٥.

٣ ـ الجنس وأثره في السلوك الانساني. دراسة وتقديم جوزيف جاسترو، ترجمة فؤاد نصار. منشورات حمد ـ بيروت ١٩٦٧.

٤ ـ تفسير الأحلام. ترجمة مصطفى صفوان. دار المعارف بمصر ١٩٦٩.

٥ ـ ما فوق مبدأ اللذة. ترجمة إسحق رمزي، دار المعارف بمصر ١٩٦٦.

٦ ـ محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي. ترجمة أحمد عزت راجح، وزارة التربية والتعليم، مكتبة مصر.

٧ ـ Freud, S. Leonardo Davince, by A. A. Brill, London, Kegan Paul, 1932.

٨ ـ Totem and Taboo, «the Basic Writings of Sigmund Freud, tr and ed. by A. A. Brill», New York: the Modern Library, 1938.

٩ ـ Introductory Lictures on Psychoanalysis, Vol. 15.

١٠ ـ An Outline of Psychoanalysis, 1940, Vol. 23, p.p. 141.

((القسم الثاني))

((مناقشة واستنتاجات))

١ ـ أهم الخصائص العلمية للقرن التاسع عشر

تمتد حياة فرويد بين عامي ١٨٥٦ و١٩٣٩. وهذا يعني أنه عاش أكثر من نصف عمره في القرن التاسع عشر.

وانطلاقاً من الرابطة الموضوعية بين الوجود الاجتماعي للفرد كمتغير مستقل وبين الوعي الاجتماعي له كمتغير تابع، فإن الأمر يقتضي تحديد أهم الخصائص العلمية التي تميز بها القرن التاسع عشر، حيث شهد فرويد النصف الأخير منه واكتسب أسس تكوينه العلمي والفكري.

يمكن وصف النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بأنه عصر المواجهة المكشوفة بين العلم والمفاهيم المثالية والغيبية. وقد ابتدأت هذه المواجهة بعلم الفيزياء، الذي تعرض قبل أي مجال علمي آخر، لتناقضات لا يمكن حسمها إلا بتخطي النظرة الميكانيكية للعالم.

كان أهم اكتشافين في علم الفيزياء في ذلك الوقت هما: اكتشاف الألكترون واكتشاف ظاهرة النشاط الإشعاعي Radio Activity. حيث دلل الاكتشاف الأول بأنه يتمتع بكتلة لا تتحدد مرة واحدة وإلى الأبد، بل إنها تتعلق بسرعته وفق قانون معين. وأثبت الاكتشاف الثاني أن الذرات المعقدة المبنية لبعض العناصر الكيميائية، كالراديوم واليورانيوم، تتفكك تلقائياً بإصدارها إشعاعات متحولة إلى ذرات أبسط منها لعناصر أخرى. وكانت دلالة هذين الاكتشافين أن كل بنيان طبيعة نيوتن قد احتاج إلى إعادة نظر جذرية. ووجه هذان الاكتشافان ـ والاكتشافات الفيزيائية الأخرى في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ ضربة جديدة إلى أسس الغيبية والميكانيكية.

وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ـ وبعد ثلاث سنوات من ميلاد فرويد ـ أعظم اكتشاف في حقل علوم الحياة «البايولوجي». ففي عام ١٨٥٩ ظهر كتاب دارون «أصل الأنواع Origin of Species» فوضعت هذه النظرية حداً لتلك النظرة التي ترى أن الحيوانات والنباتات هي من خلق قوى غيبية. وأثبتت أن عضويات كثيرة، في عصرنا، هي حصيلة التطور التاريخي للمادة العضوية، إبتداءً من عضويات أولية وحيدة الخلية. وأن أنواعاً حيوانية ونباتية متعددة هي ثمرة عملية تطور طبيعي طويلة.

وقد ظهرت إكتشافات في مجالات علمية أخرى. وإيجازاً في القول ـ ولكي نحسم الأمر مع فرويد، فيما بعد، لنضعه في التيار العلمي الذي ينتمي إليه ـ فإنه يمكن تصنيف أهم التيارات العلمية التي سادت القرن التاسع عشر إلى ما يلي:

١ ـ الماديون الجدليون: وفي مقدمتهم دارون، رغم أنه لم يكن خالصاً تماماً من الأخطاء الغيبية في تقويمه لنظريته وتعليله. حيث ذهب بشكل خاص إلى انعدام القفزات في الطبيعة. وأخطاء مالتوسية بمبالغته في أهمية الازدحام السكاني والصراع الداخلي بين أفراد النوع في الطبيعة، وانقاصه من أهمية التأثير المباشر للوسط البيئي.

وتحت هذا الصنف من العلماء الطبيعيين، ينتمي الماديون العفويون الذين يمكن تسميتهم بالماديين بالفطرة، وفي مقدمتهم مندلييف، الذي طبق القانون الجدلي «الديالكتيكي» بصورة عفوية، فوضع التصنيف الدوري وقضى على الفكرة الغيبية التي تنفي وجود رابطة أو انتقال من مختلف الحالات الطبيعة، وأثبت أن التغيرات الكمية التي تطرأ على العناصر الكيماوية تولد تغيرات نوعية.

٢ ـ الماديون الميكانيكون: وهم الذين يؤمنون بمبدأ الحتمية Determinism الذى يختلف عن مبدأ الحتمية الجدلية. فالحتمية عندهم تعزل عزلاً

تاماً ومطلقاً ومتيافيزيقياً بين الأسباب ونتائجها، وتخلط بين الأسباب الجوهرية والطارئة. وترجع الأسباب الكثيرة المتعددة التي تؤثر في هذه الظاهرة أو تلك إلى تأثيرات ميكانيكية. وتنكر التحولات النوعية في الطبيعية والمجتمع والفكر. وتخفق في تفسير طبيعة العمليات البايولوجية والنشاط العقلي والحياة الإجتماعية، ومبدأ الحتمية هذا - الذي يسمى بالحتمية الميكانيكية - كان قد انتشر في أوربا منذ القرن الثامن عشر بفعل انتشار الفلسفة المادية.

٣ - المثاليون والغيبيون، بمختلف إتجاهاتهم بضمنهم اللاأدريون وفي مقدمتهم دوبوا ريموند وهلموهلتز وكلود برنارد. الذين زعموا استحالة التعرف على الحياة وطبيعة الاحساسات والإدراك، فمهدوا السبيل لظهور الاتجاهات المثالية في حقل الفلسفة وعلم الحياة بشكل خاص وفي نظرية المعرفة بشكل عام.

٢ - مناقشة أساسيات نظرية فرويد.

يرتكز نقاشنا لنظرية فرويد على ثلاث أساسيات فيها، هي:

١ - العقل والشخصية.

٢ - عقدة أوديب.

٣ - الجنس.

وما يتبقى من نظرية فرويد هو اما مشتق منها أو تابع إلى هذه الأساسيات.

١ - ٢: العقل والشخصية Mind and Personality

افترض فرويد أن العقل ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي:-

الشعور conscious، ما قبل الشعور preconscious، واللاشعور unconscious إن اللاشعور هو مخزن أو مستودع جميع الدوافع الأساسية التي يفضل فرويد تسميتها بالغرائز وهي: الجوع، العطش، والجنس أو

الطاقة الجنسية «اللبيدو» وفي التعديل الذي أجراه أخيراً على نظريته، قسم فرويد الغرائز إلى صنفين أساسيين هما أيروس Eros وثاناتوس Thantes، واستخدم كلمة أيروس «إله الحب الإغريق» ليشير بها إلى جميع أشكال كفاح الانسان من أجل الحياة. أما ثاناتوس «إله الموت عند الإغريق» فهو يمثل غريزة الموت التي تشمل كل الدوافع العدوانية المدمّرة. (م: ٢٤، ص ٣٣).

والشعور هو ذلك القسم من العقل الذي ينمو ويتطور ليخدم علاقات الفرد مع الواقع الموضوعي «العالم الخارجي». ويمثل ما قبل الشعور تلك «المساحة» التي تقع بين الشعور، واللاشعور والذي يحتوي على الذكريات التي يمكن استدعاؤها بسهولة ويسر إلى الشعور. في حين أن الذكريات المستقرة في اللاشعور لا يمكن استدعاؤها إلى الشعور إلا بصعوبة إن لم يكن ذلك مستحيلاً.

أما الشخصية فتتكون من ثلاثة أقسام هي: الهو «id» والأنا «Ego» والأنا الأعلى «Superego».

افترض فرويد بأن «الهو» هو القسم الأقدم الذي يحتوي على كل ما هو موروث من ميلاد الفرد حتى لحظة حاضره. وتتسيّد الغرائز هذا الموروث المزيج. «والهو» محور وجود الفرد، يحكمه مبدأ اللذة الذي يهدف إلى إشباع الغرائز بعمليات عقلية لا تخضع إلى القوانين أو المنطق ولا تكترث بالنتائج أو القيم (م: ١١). وهذا الجزء من الشخصية هو الواقع النفسي الحقيقي فيها والأساس الذي تبنى عليه. وهو مطالب يندفع عاشق للذة، يحتفظ بطفوليته مدى الحياة، طفل مدلل في لشخصية، غامض يصعب اكتشافه. إنه مخزن الطاقة النفسية التي نستعمل في اشباع غرائز الموت والحياة الأساسية (م: ٣، ص ٧٩١).

أما الأنا Ego فهو ذلك الجانب من الشخصية الذي تطور خارج قشرة طبقة «الهو» فتكيف لاستلام وإخراج المثيرات (م: ١١) ويتوسط

تاماً ومطلقاً ومتيافيزيقياً بين الأسباب ونتائجها، وتخلط بين الأسباب الجوهرية والطارئة. وترجع الأسباب الكثيرة المتعددة التي تؤثر في هذه الظاهرة أو تلك إلى تأثيرات ميكانيكية. وتنكر التحولات النوعية في الطبيعية والمجتمع والفكر. وتخفق في تفسير طبيعة العمليات البايولوجية والنشاط العقلي والحياة الإجتماعية، ومبدأ الحتمية هذا ـ الذي يسمى بالحتمية الميكانيكية ـ كان قد انتشر في أوربا منذ القرن الثامن عشر بفعل انتشار الفلسفة المادية.

٣ ـ المثاليون والغيبيون، بمختلف إتجاهاتهم بضمنهم اللاأدريون وفي مقدمتهم دوبوا ريموند وهلموهلتز وكلود برنارد. الذين زعموا استحالة التعرف على الحياة وطبيعة الاحساسات والإدراك، فمهدوا السبيل لظهور الاتجاهات المثالية في حقل الفلسفة وعلم الحياة بشكل خاص وفي نظرية المعرفة بشكل عام.

٢ ـ مناقشة أساسيات نظرية فرويد.

يرتكز نقاشنا لنظرية فرويد على ثلاث أساسيات فيها، هي:

١ ـ العقل والشخصية.

٢ ـ عقدة أوديب.

٣ ـ الجنس.

وما يتبقى من نظرية فرويد هو اما مشتق منها أو تابع إلى هذه الأساسيات.

١ ـ ٢ : العقل والشخصية Mind and Personality

افترض فرويد أن العقل ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي:ـ

الشعور conscious، ما قبل الشعور preconscious، واللاشعور unconscious إن اللاشعور هو مخزن أو مستودع جميع الدوافع الأساسية التي يفضل فرويد تسميتها بالغرائز وهي: الجوع، العطش، والجنس أو

الطاقة الجنسية «اللبيدو» وفي التعديل الذي أجراه أخيراً على نظريته، قسم فرويد الغرائز إلى صنفين أساسيين هما أيروس Eros وثاناتوس Thantes، واستخدم كلمة أيروس «إله الحب الإغريق» ليشير بها إلى جميع أشكال كفاح الانسان من أجل الحياة. أما ثاناتوس «إله الموت عند الإغريق» فهو يمثل غريزة الموت التي تشمل كل الدوافع العدوانية المدمّرة. (م: ٢٤، ص ٣٣).

والشعور هو ذلك القسم من العقل الذي ينمو ويتطور ليخدم علاقات الفرد مع الواقع الموضوعي «العالم الخارجي». ويمثل ما قبل الشعور تلك «المساحة» التي تقع بين الشعور، واللاشعور والذي يحتوي على الذكريات التي يمكن استدعاؤها بسهولة ويسر إلى الشعور. في حين أن الذكريات المستقرة في اللاشعور لا يمكن استدعاؤها إلى الشعور إلا بصعوبة إن لم يكن ذلك مستحيلاً.

أما الشخصية فتتكون من ثلاثة أقسام هي: الهو «id» والأنا «Ego» والأنا الأعلى «Superego».

افترض فرويد بأن «الهو» هو القسم الأقدم الذي يحتوي على كل ما هو موروث من ميلاد الفرد حتى لحظة حاضره. وتتسيّد الغرائز هذا الموروث المزيج. «والهو» محور وجود الفرد، يحكمه مبدأ اللذة الذي يهدف إلى إشباع الغرائز بعمليات عقلية لا تخضع إلى القوانين أو المنطق ولا تكترث بالنتائج أو القيم (م: ١١). وهذا الجزء من الشخصية هو الواقع النفسي الحقيقي فيها والأساس الذي تبنى عليه. وهو مطالب بدفع عاشق للذة، يحتفظ بطفوليته مدى الحياة، طفل مدلل في لشخصية، غامض يصعب اكتشافه. إنه مخزن الطاقة النفسية التي نستعمل في اشباع غرائز الموت والحياة الأساسية (م: ٣، ص ٧٩١).

أما الأنا Ego فهو ذلك الجانب من الشخصية الذي تطور خارج قشرة طبقة «الهو» فتكيف لاستلام وإخراج المثيرات (م: ١١) ويتوسط

الأنا بشكل تنفيذي بين العالم الخارجي وبين «الهو» وفق مبدأ واحد هو مبدأ الواقع الذي يعفي ما هو موجود بالفعل، وإن الانسان لا يبحث فقط عن اللذة، بل هو مرتبط بحدود الواقع الذي يكشف له أنه في لحظة ما، عليه أن يؤجل لذاته العاجلة المباشرة من أجل لذة أخرى أكثر أهمية. وأن الانسان وإن كان يبحث عن اللذة فهو واقعي في بحثه.

ويقوم الأنا بمهمة كبت مطالب «الهو» إذا لم تكن مشروعة، ووظيفة الأنا الأساسية هي «الدفاع عن الشخصية والعمل على توافقها مع البيئة، وحل الصراع بين الكائن الحي والواقع أو بين الحاجات المتعارضة للكائن الحي» (م: ٥ ص: ٤٩٧).

وأما الأنا الأعلى superego فهو ذلك القسم من الشخصية الذي يمثل الجانب الأخلاقي القضائي للانسان. ويقوم بمراقبة «الهو» وإعطاء الأوامر وتصحيحها والتهديد بالعقاب تماماً كما يفعل الآباء (م: ١١). ويمثل الأنا الأعلى القيم التقليدية والمثل العليا في المجتمع كما تنتقل من الآباء إلى الأبناء. ويمكن تشبيهه بالعملة ذات الوجهين. يمثل أحدهما الضمير ويمثل الوجه الآخر والأنا المثالية. وينشأ من طبيعة العقاب والثواب الذي يتلقاه الطفل. وتتحدد وظائف الأنا الأعلى بقمع النوازع غير المقبولة إجتماعياً. ورغم اختلافها من مجتمع لآخر فإنها تكون نوازع جنسية وعدوانية في معظم المجتمعات. ويقوم الأنا الأعلى أيضاً بمحاولة الضغط على الأنا لاستبدال الأهداف الواقعية بأهداف مثلى باتجاه البحث عن الكمال، بغض النظر عن طبيعة الظروف الواقعية والإمكانات المتاحة.

ويرى فرويد بأن الهو والأنا الأعلى يشتركان في شيء واحد بالرغم من الفرق الرئيسي بينهما، فكلاهما يمثل سلطة الماضي، حيث يمثل «الهو» سلطة الوراثة، ويمثل الأنا الأعلى السلطة التي خلفها الناس في الفرد. أما الأنا فهو خبرة الفرد الخاصة بالحوادث المرضية والعادية» (م: ٥، ص: ٥٠).

أهمية النظرية:

إن مفاهيم الهو والأنا والأنا الأعلى، هي مفاهيم أساسية وحاسمة في نظرية التحليل النفسي. وهذا التركيب هو أساس وأهم نتائج التحليل النفسي الذي يعني أن السلوك يملك دافعاً لا شعورياً. وهذا التركيب أو التقسيم الفرويدي مهم جداً في العصاب، حيث يهدف العلاج في التحليل النفسي إلى تقوية وتعميق الأنا الذي يمثل ذات الانسان.

الأدلة الموضوعية:

هناك نوعان من الأدلة الموضوعية يمكن عن طريقهما التحقق من افتراضات فرويد في العقل والشخصية، هما:

١ ـ الأدلة الفسيولوجية
٢ ـ الأدلة الوظيفية

فيما يتعلق بالافتراضات الفسيولوجية، فإن دراسة Mayoun (١٩٦١) التي هدفت إلى معرفة تأثير دارون في أعمال بافلوف وجاكسون Jackson تشير إلى وجود تشابه مماثل في مفاهيم هؤلاء الباحثين. فالمستويات الثلاثة عند جاكسون تناظر الهو والأنا والأنا الأعلى عند فرويد، والمنعكس والمنعكس الشرطي والنظام الأشاري الثاني عند بافلوف (م: ١٩).

ويستنتج KLINE من الدراسات ذات العلاقة، بأنه لا يوجد دعم ثابت من الدراسات الفسيولوجية العصبية لوظيفة الدماغ يؤيد التقسيم الثلاثي للعقل الذي جاء به فرويد (م: ١٩، ص: ٣٣٠).

وفي ما يخص الأدلة أو الافتراضات الوظيفية فإن دراسات عدة أجريت في هذا الميدان أهمها دراسات Cattel (١٩٥٧) وPawlik and Cattel (١٩٦٤)، خلصت إلى عدم وجود دليل قطعي يثبت نظرية فرويد في

التقسيم أعلاه. في حين دعمت هذه الدراسات نظرية أفلاطون في المفهوم الثلاثي للعقل كما طرح في جمهوريته.

موقف الفرويديين:

يتفق الفرويديون مع فرويد في بعض مفاهيمه عن العقل والشخصية. فادلر Adler يتفق مع فرويد في وجود اللاشعور، ولكنه يختلف عنه في تقسيم الشخصية. حيث يعطي أدلر الأهمية الأكبر إلى الذات Ego. والانسان عند أدلر كائن إجتماعي حيث يرى أن دراسة الحياة الواقعية للفرد، تدفعنا إلى تقدير أهمية العنصر الاجتماعي فيها، إذ أن الفرد لا يصير فرداً إلا في مجتمع (م: ١٠). والانسان عند أدلر كائن يبحث عن القوة من أجل أن يكون مسيطراً، وفق مبدأ أسلوب حياته الذي ينتج من قوتين، داخلية تنشأ وتنمو مع الفرد، وخارجية « بيئية » تؤثر في سلوكه. وإن «سلوك الشخص بأسره ينبع من أسلوب حياته» (م: ٣، ص: ١٦٨). وأسلوب الحياة Life Style يتجم عن الذات، وهو الذي يميز فرداً عن آخر. وتبلغ الذات أعلى مراحلها عندما تكون خلاقة. وحين تكون الذات مبدعة فهي التي تحدد إلى درجة كبيرة أسلوب الحياة. وهذا يعني أن أدلر أكثر إنسانية من فرويد، حيث أعطى أهمية لعملية التفاعل الاجتماعي، وسلم بأن الانسان قادر على أن يكون مبدعاً وأن يتحكم في ظروفه ويتخطى العقبات.

أما يونك ـ الذي كان يفترض أن يكون خليفة فرويد في التحليل النفسي. فإنه يضع ثلاث أنظمة للعقل هي: الشعور، الذي يهتم بعلاقة الفرد مع العالم المحيط به، ويمثل الوجه المرئي للشخصية الذي يمكن تسميته بالقناع، ونوعان من اللاشعور هما: اللاشعور الشخصي، الذي يعني مستودع الخبرة الشخصية للفرد التي يكتسبها خلال حياته، واللاشعور الجمعي، الذي يمثل الجانب العميق من العقل الذي يشمل الأساطير والمعتقدات للعنصر الذي ينتمي إليه ذلك الإنسان، أي الخبرات

التي مرت بها تلك السلالة التي ينتمي إليها ذلك الانسان (م: ١٩). وهذا يعني أن يونك ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه فرويد، حيث اعتبر اللاشعور الجمعي هو الأساس العنصري أو السلالي الموروث للبناء الكلي للشخصية. أي أنه يحوي كل الخبرات الانسانية المتراكمة من الماضي السحيق، والتي يمكن الرجوع بها إلى مرحلة ما قبل الانسان (م: ٨).

استنتاج وتعليق:

١ ـ إن افتراض فرويد بوجود اللاشعور لم يكن جديداً، فقد كان ذلك معروفاً عند شاركو وجانيه (م: ٢٦، ص: ١٢٦) والجديد الذي جاء به فرويد، هو التوكيد الذي أضفاه على اللاشعور لكونه الجانب الرئيس في الشخصية، وافتراضه بالإمكانية «المحدودة» للإستكشاف عن طريق الأحلام، في حين كان شاركو يستقصي اللاشعور بالتنويم المغناطيسي.

٢ ـ إن ما توصلت إليه دراسة Magoun (١٩٦١) المذكورة آنفاً والتي أشارت إلى وجود تشابه بين (الشعور وما قبل الشعور واللاشعور) عند فرويد، وبين (المنعكس والمنعكس الشرطي والجهاز الإشاري الثاني) عند بافلوف، تبدو محاولة توفيقية أكثر منها علمية. فالمنهج الذي اتبعه فرويد يختلف كلياً عن المنهج الذي اتبعه بافلوف، إضافة إلى أن الأرضية الفكرية لكليهما مختلفة تماماً.

٣ ـ يستنتج Kline الذي أجرى مسحاً للدراسات ذات العلاقة ـ بأن الأدلة الموضوعية لتأييد هذه النظرية هي أدلة ضعيفة. فهناك تقبل، ولكن باهتمام قليل فيما يخص الشعور وما قبل الشعور واللاشعور. كما أن المعرفة الفسيولوجية لها موقف متضارب فيما يتعلق بالتركيب الفسيولوجي المناظر للعمليات أعلاه، في الذات والذات العليا والذات الدنيا (م: ١٩ ص: ١٥٠).

٢ ـ ٢ : عقدة أوديب Oedipus Complex .

تعني عقدة أوديب بأنها الموقف الذي يواجهه كل طفل كنتيجة حاسمة وتبعية لفترة الطفولة التي يعيشها مع والديه. وفي حوالي السنة الخامسة من عمره يصبح الطفل عاشقاً لأمه. يحب أن يمتلكها جسدياً بطرق يستوحيها من ملاحظاته وتخميناته البدائية للحياة الجنسية. ويتولد عند الطفل شعور بالكراهية لأبيه لكونه يصبح منافساً له في أمه (م: ١٢، ص: ١٨٩). وكنتيجة تبعية تنشأ عقدة أخرى هي عقدة الإحصاء، التي تعني خوف الطفل من أبيه بأن يقطع عضوه الذكري إذا ما تمادى ـ الطفل ـ في ميله الجنسي نحو أمه. فحين يدخل الطفل في المرحلة الأوديبية، يبدأ في اللعب بقضيبه ويأخذ في الوقت نفسه يتخيل، أنه يقوم مع والدته ببعض الأفعال التي يستخدم فيها عضوه الذكري. ولكنه يصاب بالصدمة نتيجة تهديده بالإحصاء (م: ٥، ص: ٦٦). ويختلف الموقف مع البنت إذ يحدث العكس، حيث تحب البنت أباها وتغار من أمها لأنها تشاركها في أبيها، ولأنها ـ البنت ـ لا تملك عضواً ذكرياً فإنها تحمل أمها تبعية ذلك وتتجه نحو أبيها، وهنا تسمى العقدة بعقدة الكترا Electra Complex .

أهمية النظرية :

اعتبر فرويد ان اكتشافه لعقدة أوديب انجاز رائد يشبه اختراع الكهرباء والعجلة (م: ١٩ ص ٣٨٣). وقال في آخر اعماله: (اذا قدر للتحليل النفسي ان يعتز او يفتخر فقط باكتشافه لعقدة أوديب فإن هذا وحده يعطيه الحق بأن يعتبر هذا الاكتشاف من أثمن ما حصل عليه الجنس البشري (م: ١١).

ويرى فرويد بأن عقدة أوديب تبدو في حضارتنا كنهاية حكم عليها ان تكون مرعبة. ويقرر بأن عقدة أوديب هي لب العصاب أو جوهره.

ويحدد من أن الاعتراف بعقدة أوديب هو المبدأ الأساس الذي يميز اتباع التحليل النفسي عن خصومه (م: ٦ص: ٢٧٨).

الأدلة الموضوعية:

:تباينت نتائج الدراسات التي تناولت موضوع التحقق من عقدة أوديب. وبغض النظر عن تفاصيل هذه الدراسات فإن دراسة واحدة قد أيدت ذلك هي دراسة Frednan (١٩٥٢). وبعض التأييد في كل من دراستي Whiting (1951) Michalsmith (1958) ولم تؤيد كل من دراستي. Kuppuswamy (1949) Biddle, (1957).

موقف الفرويديين:

تباين موقف الفرويديين من عقدة أوديب فقد رفض أدلر مفهوم عقدة أوديب الذي يعتبر مفهوماً مركزياً عند فرويد (م: ٢٠ص ٥٩) ولم تنكر هورني من الفرويديين الجدد ـ عقدة أوديب. ولكنها انكرت أساسها البايولوجي واعتبرتها «كنتاج لظروف معينة، أحدها الإثارة الجنسية من قبل الوالدين ـ والأخرى متغيرات عديدة تختلف كلياً في طبيعتها (م: ١٦ ص ٨٢). وهذا يعني ان الإختلاف الحقيقي بين هورني وفرويد يمكن في تفسيره عقدة أوديب، الجنس ام البحث عن الأمن. وهذا يقود الى خلاف آخر بين هورني وفرويد. فعقدة أوديب هي جوهر الصراع عند فرويد كما أشرنا. اما عند هورني فإن مفهوم القلق الأساسي basie znxiety الذي يعني «الإحساس الذي ينتاب الطفل بعزلته وقلة حيلته في عالم يحفل بامكانات العداوة» هو أساس العصاب.

أما فروم Fromm فقد قبل هو الآخر عقدة أوديب ولكنه نفى أيضاً جنسيتها، وعزى سببها كنتيجة للقوى الإجتماعية وخاصة عند بعض العوائل الغريبة ذات التركيب الخاص (م: ١٩ ص٣٣٣).

ويرى فروم بأن الرغبات الأوديبية ليست أساساً رغبات جنسية ولكنها واحدة من أكثر النزعات الأساسية في الإنسان: الرغبة في البقاء

والخوف من أن يكون حراً. وتبدو المنافسة الأوديبية ـ من وجهة نظر فروم ـ نتيجة لبطريركية وتسليطة المجتمع الغربي في الصراع الناتج بسبب المعاملة الخشنة القائمة بين الآباء والأبناء.

ويمكن تلخيص موقف معظم الفرويديين الجدد من عقدة أوديب بالآتي:

١ ـ اتفقوا مع فرويد على وجود عقدة أوديب.

٢ ـ قللوا من عامل الجنس فيها.

٣ ـ اختلفوا مع فرويد في تفسير سببها. فهو عند فرويد سبب بايولوجي وعند الفرويديين الجدد سبب اجتماعي.

٤ ـ انكروا الشمولية والتعميم فيها مفضلين اقتصارها على علاقات الطفل بوالديه في انواع محدودة جداً من العوائل كتلك التي تبرز فيها التسلطية الفكتورية للوالد.

استنتاج وتعليق:

لا توجد هناك دراسات تكفي للتدليل على وجود عقدة أوديب. واذا قبلنا بالموازنة الكمية. فإن الدراسات التي تؤيد وجود عقدة أوديب هي أكثر من الدراسات التي أيدتها. ويبدو أن معظم السيكولوجيين كما يشير (Valintine) لم يقبلوا عقدة أوديب (م: ١٩ص ٩٥) كما ان الفرويديين الجدد اختلفوا مع فرويد في تفسيره عقدة أوديب وغيروا فيها بشكل لا ينسجم مع منطلق فرويد.

لقد وضع فرويد شرطاً قاسياً حين قرر بأن عقدة أوديب هي الحد الفاصل الذي يفرز اتباع التحليل النفسي من لا اتباعه. وأهمية هذا الشرط لا تكمن في عملية الفرز بل في كيان النظرية. فهناك اسئلة تهزّ عقدة أوديب بشكل يصعب فيه ان تصمد امامها من قبيل:

اذا كان فرويد قد أضفى صفة الإطلاق الزماني والمكاني لعقدة أوديب وهو يرى أن أوديب الملك تشكل سابقة تاريخية ـ فهل كانت هناك

عقدة أوديب في المجتمع الأموي (الأم)؟ وإذا كانت موجودة - وهي غير موجودة كما تدلّل الدراسات الأنتروبولوجية - فكيف كان شكلها؟.

- ماذا يحصل في حالة وجود اطفال ايتام؟

- وماذا يحصل لوحدث ان الزوجة الأم لاتنام مع زوجها بل تنام مع طفلها حتى انتهاء السنة الخامسة من عمر الطفل - أي حتى اجتيازه المرحلة الأوديبية؟

- ولو سلمنا بوجود منافسة بين الوالد والابن فهل يعود السبب الى الغيرة الجنسية ام للمعاملة التسلطية أم لعوامل أخرى؟

- واذا كان سبب الصراع يعود - من وجهة نظر فرويد - الى عقدة أوديب، فإن الدراسات التي أجريت لم تؤيد ذلك. وحتى الدراسة التي أيدت وجود عقدة أوديب - دراسة فريدمان - لم تؤيد كون عقدة أوديب هي جوهر الصراع في الحياة العقلية.

يستخلص من كل ذلك بان عقدة أوديب - المبدأ الأساسي في نظرية فرويد - لم تدعمها الدراسات بالمواصفات التي طرحها فرويد. وانها تعرضت اما لدحضها أو لإيجاد تفسيرات لها، أو تأييد طفيف لبعض معطياتها وبهذا يهتز المبدأ الأساسي في نظرية التحليل النفسي. غير أنها - عقدة أوديب - تبقى كمتغير فرضي في هيكل نظرية فرويد.

الجنس SEX

يرى فرويد في الجنس ما يلي:

١ - ان الحياة الجنسية لا تبدأ في سن البلوغ بل تبدأ - وبمظاهر واضحة - بعد الولادة مباشرة (م: ١١).

٢ - تمر الحياة الجنسية بالأدوار التالية:

٢ ـ ١ : المرحلة الفمية oralphase تبدأ من الميلاد حتى السنة الأولى من عمر الطفل. ويعتبر الفم أول منطقة في البدن يحصل فيها الطفل على اللذة. وتصبح الشفتان من الآن فصاعداً مصدراً للحصول على اللذة.

٢ ـ ٢ المرحلة الشرجية anal phase تستمر حتى السنة الثالثة من عمر الطفل. وفيها يتركز الانتباه على الافرازات. ويجد الطفل لذة في إثارة هذه المنطقة أو في التخلص من الافرازات أو الاحتفاظ بها وتصبح منطقة الشرج هي المنطقة الشبقية الثانية التي تلي المنطقة الفمية طولاً وقوة. و«ان العديد من السمات الأخرى ترجع جذورها الى المرحلة الشرجية» «م: ٣ض: ٧١).

٣ ـ ٢ : المرحلة القضيبية phallic phase تبدأ بحوالي السنة الرابعة أو بين الثالثة والخامسة من عمر الطفل. وفيها يتركز اهتمام الطفل على اكتشاف الفروق الجنسية ـ وبالذات العضو الذكري. وفي هذه الفترة تكون علاقات الطفل العاطفية والاجتماعية بوالديه، قد «أخذت تنمو وتتعقد وتهيء السبيل لظهور عقدة أوديب (م: ٨، ص٥٠٤).

٤ ـ ٢ : المرحلة التناسلية: Genital Phase وتبدأ بعد البلوغ في حوالي الثانية عشرة من عمر الطفل، حيث تبدأ الغريزة الجنسية باتجاه هدفها البايولوجي. وتحدث هنا أمور أساسية منها، أن النفس تعيد كثيراً من الشحنات النفسية اللبيدية السابقة. وتنظم بعض الشحنات النفسية اللبيدية الأخرى الى الوظيفة الجنسية في صورة اعمال تمهيدية أو مساعدة، وتنشأ عن اشباعها حالة النشوة التي تسبق اللذة. وتطرد بعض النزعات الأخرى من المنظمة النفسية اما بان تقمع suppression او تكبت repression واما بأن تستخدمها الذات على نحو ما فتنشأ عن ذلك سمات الفرد الخلقية، وإما بان يعمل الفرد على اعلائها sublination وتبديل اهدافها، وهناك فترة كمون تقع بين المرحلة القضيبية والمرحلة

التناسلية ـ تكون فيها النزعات الجنسية في حالة ضعف وكمون.

٣ ـ ان سمات الشخصية تشتق من المراحل الثلاث الأولى اعلاه للنمو الجنسي. وان شخصية الإنسان الراشد ترتبط بالنمو الجنسي لديه حين كان في مرحلة الرضاعة. وان اسباب الاضطرابات في الشخصية ترجع الى الفترة الأولى من حياة الفرد.

٤ ـ تشتمل الحياة الجنسية على الوظيفة الخاصة بالحصول على اللذة من بعض مناطق البدن. وتدخل هذه الوظيفة فيما بعد في خدمة الوظيفة التناسلية وهذا يعني وجود معنيين للجنس «تناسلي» و«جنسي» حيث يتضمن المعنى الجنسي اعمالاً كثيرة ليست لها أية صلة بالأعضاء التناسلية (م: ٥)

٥ ـ ان الغريزة الجنسية هي السيد المطاع الذي يسيطر على الأفراد والأمم. وكثيراً ما يتوقف تاريخ الشعوب على الأهواء التناسلية لرؤسائها (م: ٦ص :٢٩٨).

أهمية النظرية:

الجنس نظرية مهمة في التحليل النفسي. فهي تهدف إلى معرفة سيكولوجية الشخصية. واقتراحات ضمنية في كيفية الحصول على أنماط من السلوك المرغوب. وتطرح إمكانية التخفيف من الاضطرابات الناتجة بسبب التثبيت Fixation ـ الذي يعني التشبث والتعلق بموضوع حب معين ـ وذلك بطريقة العلاج بالتحليل النفسي.

وتؤكد النظرية على أن سنوات الطفولة الخمس الأولى، هي المرحلة التي تقرر سلوك الفرد حين يصبح كبيراً.

وتشير النظرية إلى أن الاختلاف في الشخصيات السويّة، العصاب، الاختلافات الثقافية، والشذوذ الجنسي، ترجع كلها إلى تطور

الحياة الجنسية في السنوات الخمس الأولى من عمر الإنسان.

الأدلة الموضوعية

أجريت دراسات كثيرة حول هذا الموضوع، ندرج خلاصات أهمها بالآتي:

هناك دعم قوي للخاصية الشرجية anal character دللت عليه دراسات Lazare (1966) Kline, (1964) Beloff (1957) Grygier, (1961) et al. ودعمت بشكل غير قوي الخاصية الفمية the oral character كل من دراسة Goldman — Eisler (966) Lazare et al., (1951, 950, 948)

لا يوجد هناك دعم لباقي الخصائص في دراسات Barnes (952) Grygier, (954) Krout and Krout (961) (م: ١٩، ص: ٣٠)

موقف الفرويديين:

الجنس هو العامل الرئيس الذي انفرط بسببه عقد ثلاثي التحليل النفسي، لمكون من فرويد ويونك وأدلر.

ففي عام ١٩١١ انشق أدلر عن فرويد بسبب تأكيد الأخير وإصبزاره،على أن الأمراض النفسية تعود إلى أساس من التجارب الجنسية الفاشلة والمكبوتة في حياة الطفولة.

في حين يرى أدلر أن دافع السلوك هو الرغبة في التخلص من الشعور بالنقص Inferiority Complex،ويرى أدلر بأن شخصية الفرد وحدة متكاملة. واعتقاده بأهمية العوالم غير الجنسية في أحداث الاضطرابات النفسية، وفي أهمية الدور الذي تلعبه الذات والعوامل الثقافية

والاجتماعية. ورغم أن أدلر لم ينكر الاستعدادات الغريزية كما هي الحال مع فرويد، إلا أن أدلر أعطى اهتماماً للإطار الاجتماعي الذي ينشأ فيه الطفل. فالشخصية المدللة في نظر أدلر هي ضحية المجتمع. وأن الفرق بين الطبيعي والمريض نفسياً هو فرق في كيفية رسم الأهداف، حيث يضع الطبيعي أهدافاً واقعية يسعى إلى تحقيقها، بينما يكون المريض نفسياً قد وضع أهدافاً خيالية يصعب الوصول إليها.

وفي عام ١٩١٢ انشق يونك عن فرويد لنفس السبب. ويرى يونك بأن الصراع في الشخصية ليس بين الدوافع البدائية «الجنسية» وبين متطلبات المجتمع، وإنما بين نواحي من الشخصية لم تنمو نمواً متساوياً.

أما الفرويديون الجدد فإن سوليفان Sulliva أجرى تحويراً على نظرية فرويد، حيث أكد على التتابع التطوري لنمو الشخصية بدون التأكيد على النواحي الجنسية (م: ٢٤) وعلى حين يركز فرويد على الطاقة الجنسية، فإن سوليفان يؤكد على الذات والوسائل التي يحاول بواسطتها إحداث عملية التوافق، وفق نظام أسماه نظام الذات Self — System والشخصية عند سوليفان توجد فقط حيث توجد العلاقات المتبادلة بين الأفراد (م: ٨).

وبعكس وجهة نظر فرويد من أن علاقة الفرد بالآخرين هي دائماً وسائل لإرضاء الدوافع البايولوجية، فإن فروم Fromm اعتبر الدوافع التي تحدد الاختلافات بين شخصيات الأفراد، كالحب، والكره، والجنس والخوف هي جميعها «منتجات إجتماعية» (م: ١٩، ص: ٣٣٣).

وتشدد هورني Karen Horney على المحددات الاجتماعية

للشخصية وترفض نظرية الطاقة الجنسية. إن فرويد ينظر إلى المرأة على اعتبار أنها تحسد الرجل لامتلاكه العضو الذكري. وتنكر هورني ذلك وترى أن الرغبة في أن تكون المرأة رجلاً هي «تعبير عن الأنماط المرغوبة كالقوة والشجاعة والرجولة والاستقلال والنجاح والحرية الجنسية والحق في اختيار شريك الحياة» (م: ١٦، ص: ١٠٨).

استنتاجات وتعليق:

١ ـ إن الانسان من وجهة نظر فرويد، هو كائن بايولوجي أكثر منه اجتماعي.

٢ ـ ومادامت الدوافع التي تحرك الانسان هي دوافع بايولوجية موروثة وجنسية بالذات لا تتأثر بقوانين التطور الاجتماعي، فإن مسألة التحكم فيها في وضع إجتماعي له قيم وقوانين معينة هي مسألة غير ممكنة. والطريق الوحيد أمام الانسان هو عقدة أوديب، النهاية المرعبة التي لا مفر منها على حد قول فرويد.

٣ ـ إن الصراع الانساني بنوعيه الذاتي والموضوعي هو صراع فوز ذو سبب جنسي. وإن أي قهر أو إستغلال يصيب الانسان لا يساوي شيئاً أمام الحرمان الجنسي.

٤ ـ إن البعد الزمني المهم في الشخصية هو ليس الحاضر أو المستقبل بل الماضي. كما كان فرويد حاداً في طرحه لعقدة أوديب، فقد كان صارماً في طرحه لمفهوم الجنس، الأمر الذي أدى إلى أن ينشق عليه أقرب زملائه بسبب هذه المغالاة في أهمية الجنس. إن مسألة كون الانسان كائناً بايولوجياً أكثر منه اجتماعياً موقف عارضه الفرويديون والكلاسيكيون والجدد. وإن الاتجاه العلمي ـ حتى في الولايات

المتحدة ـ يؤكد على أهمية العوامل البيئية والتنشئة الاجتماعية في تشكيل شخصية الفرد. ورغم اتفاق الفرويديين في كون فرويد كان قد غالى في أهمية الجنس. إلا أنهم يتباينون في طرح البديل. فادلر يؤكد على العمل والعلاقات الاجتماعية ـ إضافة إلى العلاقات الجنسية ـ ولكن بمفهوم التنافس القائم بدافع الشعور بالنقص. وفي حين يؤكد فرويد على الأصول الطفلية للشخصية، فإن يونك يؤكد على الأصول العنصرية لها، ويرى بأن الانسان يولد مزوداً بكثير من الاستعدادات التي يتركها له أسلافه.

أما الفرويديون الجدد، فإن كارين هورني ترى بأن مفتاح نمو الشخصية يكمن في التركيب الاجتماعي للأسرة. وان استثارة القلق الأساسي Basic anxiety ومصيره، وليس الدوافع العدوانية الجنسية، والعدوانية ـ التي قال بها فرويد ـ هي الأساس لفهم شخصية الفرد (م: ١٥)

ويتفق فروم مع هورني ضد فرويد، ويرى بأن الانسان يكوّن علاقاته بالعالم باكتساب وتمثل الأشياء، وبعلاقته مع الآخرين ومع نفسه (م: ١٣).

وفي ما يتعلق بالبعد الزمني المهم في الشخصية، فإن الفرويديين الجدد لم يتفقوا مع فرويد في كون مرحلة الطفولة هي الأساس في تحديد سلوك الفرد، بل اعتبروها عاملاً جوهرياً ـ وليس وحيداً ـ في تطور الشخصيه. كما ان الفرويديين الكلاسيكيين أعطوا اهتماماً إلى الحاضر والمستقبل. فيونك يرى بأن سلوك الفرد ليس مشروطاً فحسب بتاريخه الفردي والعنصري، بل وكذلك بأهدافه وبمختلف ضروب حياته

«فالإنسان تحركه الأهداف بقدر ما تحركه الأسباب» (م: ٣، ص: ١٠٩).

وكذا الحال مع أدلر الذي أكد على أهمية المستقبل، إذ يرى بأن الانسان لديه الفرصة لأن يصبح أفضل وأحسن من خلال توافقه مع الحياة والمجتمع. ونوجز إستنتاجنا بالآتي:

إن الدراسات التي أيدت أو التي لم تؤيد نظرية فرويد في موضع الجنس، عانت من خلل في منهج بحثها (م: ١٩، ص: ٢٨).

وإن الفرويديين الكلاسيكيين والجدد لم يتفقوا مع فرويد في تأكيده على عامل الجنس، كمتغير وحيد تختزل وتفسر على أساسه وجود وسلوك الانسان. ويتفق معظم الفرويديين ومعظم علماء النفس في الدول الغربية وجميع علماء النفس في الأقطار الاشتراكية، على أن الانسان كائن إجتماعي بالدرجة الأساسية.

ويؤكدون على أهمية البيئة والتنشئة الاجتماعية ولا ينفون ما للجنس من أهمية. ولكنهم لا يغلّبون هذه الأهمية بالدرجة التي أكد عليها فرويد.

ومع ذلك فهناك من علماء النفس من يرى بأن موضوع الجنس الذي خاض فيه فرويد «هو الموضوع الذى عمل فيه أروع اكتشافاته وأفخر أخطائه» (م: ٢٦، ص: ٤١)

٨ استنتاجات ختامية ـ

إن فرز الأرضية الفلسفية لأي مفكر يحدد بالتبعية نتاج تفكيره وطبقاً لأرنست جونز ـ زميل فرويد المقرب جداً ـ فإن فرويد كان يحضر

جلسات المناقشة الفلسفية لبرنتانو Franz Berhane خلال الفترة الدراسية التي قضاها كطالب طب في فيينا أواخر سبعينات القرن الماضي. وفي عام ١٨٨٩ وخلال فترة أدائه الخدمة العسكرية، حاول فرويد أن يكسب قليلاً من المال بترجمته لبعض مقالات ستيورات مل John Stuart Mill إلى الألمانية. ويبدو أن فرويد قد تأثر بذلك (م: ٢٣، ص: ٧٣).

حيث تعتبر «الفلسفة الاجتماعية لفرويد هي فلسفة ستيوارت مل» (م: ٢١، ص: ٥٧). ويبدو واضحاً أن هناك تماثلاً بين مفاهيم فرويد وبين فلسفة شوبنهور. فمفهوم فرويد للاشعور كمستودع للطاقة البدائية اللامعقولة، يوازي نظرية شوبنهور من أن الذات الحقة هي الإرادة اللاواعية. وإن فكرة الموت كحل وحيد لمشكلة الوجود الانساني من وجهة نظر شوبنهور، تجد صداها في غريزة الموت عند فرويد التي جسدها بنظرته التشاؤمية للحضارة في كتابه (الحضارة ومنغصاتها Civilization and discontents).

وإذا كان هذا يمثل الإطار الفلسفي العام لفكر فرويد، فإن هناك فلسفتين ـ كانتا سائدتين في نهاية القرن التاسع عشر، فترة تكون أساسيات فكرة فرويد ـ هما الفلسفة الوضعية في فرنسا ومدرسة المنفعة في إنكلترا. وقد ادعت الفلسفة الوضعية من أنها اتخذت موقفاً وسطاً بين المادية والمثالية من أجل الوصول إلى حياد فكري. فقرر ـ الوضعيون من أن وظيفة العلم هي الوصف لا التفسير. وان منهج البحث يعتمد على المعرفة المثالية من الخبرة Empirical وليس تجريبياً Experimentalوكانت حلقة فيينا هي آخر مرحلة المدرسة الوضعية التي تبلورت في مطلع العقد الثالث من القرن العشرين «وقدمت لنا. الوضعية المنطقية في مجال الفلسفة، والتحليل النفسي في مجال علم النفس» (م: ٤، ص: ٥).

أما مدرسة المنفعة ـ التي تربطها بالوضعية أوجه شبه وتقارب ـ فهي التي عبر عنها في إنكلترا جيرمي بنتام، الذي رأى أن الطبيعة فرضت على البشرية سيدين لهما السطوة والغلبة هما اللذة والألم، حيث هما

وحدهما اللذان يشيران على الانسان بما ينبغي أن يفعله، ويحددان له ما سيفعله. وفي ضوء العرض الذي قدمناه يبدو واضحاً تأثير هاتين الفلسفتين في فكر فرويد.

وفي ما يتعلق بالناحية العلمية لنظرية فرويد، فإن إيزنك يرى بأن التحليل النفسي غير علمي (م: ١٩، ص: ١). ويتفق ماركس مع إيزنك ويرى أن التحليل النفسي لا تنطبق عليه المعايير العلمية، وان معظم تركيباته ساذجة لا تتمتع بالصدق والثبات (م: ١٩) واستنتج Farrell ان نظرية التحليل النفسي لا يمكن أن يقال عنها انها صحيحة، ولا يمكن أن يقال عنها انها غير صحيحة (م: ١٩). وهناك من يقول بأنه إذا أراد أحد أن ينقد نظرية التحليل النفسي، فيجب عليه أولاً أن يجد هذه النظرية. إذ لا يوجد مكان محدد واضح يشير إلى ما هو مسلّمات وما هو تنظير، وما هي العلاقات بين المسلّمات والتنظير في نظرية فرويد (م: ٢٣، ص: ٢٦٩).

ويرى مختلف نقاد التحليل النفسي أن فرويد أعطى الوراثة والنضج وزناً أكثر مما يجب، ووزناً أقل مما يجب للسمات الشخصية المكتسبة إجتماعياً. وأنه نسب إلى الطفل رغبات شهوية وتدميرية. كما أنه نسب إلى جميع البشر دفعات نحو المحارم ونمو الجنسية المثلية، وفسر سلوك الانسان على أساس من دوافع جنسية (م: ٣).

وهذا يعود - في رأينا - إلى أن فرويد اختزل الظاهرة النفسية ففسرها في ضوء قوانين علم أسبق بأسلوب الحتمية الميكانيكية، وهذا يظهر في تقسيمه للشخصية إلى الهو والأنا والأنا الأعلى الذي - بعد التحليل - يبدو مطابقاً لما يحصل في الأواني المستطرقة. فالأنا الأعلى والهو يمثلان اسطوانتين يربط بينهما أنبوب في وسطه صمام. فحين تكون القوى غير متعادلة في الاسطوانتين يحصل الاضطراب في الأنبوبين (الأنا). وحين يتساوى الضغط من الهو والأنا الأعلى، فإن الشخص يكون مسيطراً على الموقف نفسياً بسبب توازن القوى.

إن الذي أوصل فرويد إلى هذا النمط من التفكير، هو ولعه بالداروينية والبايولوجي الذي درسه على يد أساتذة مشهورين في جامعة فيينا، وتبنيه لطريقة هلموهلتز الميكانيكية، والوصف في الفلسفة الوضعية المنطقية، وبفلسفة ستيوارت مل التي تعتبر الوجود الاجتماعي تجميعاً لأفراد مستقلين جاءوا سوية من أجل منافعهم الخاصة. وهذا هو العيب الأساس في النظرية الفرويدية حيث ركزت على الجانب البايولوجي، وفسرت سلوك الانسان في ضوء القوانين البايولوجية، الأمر الذي قاد فرويد إلى أن يعتبر الحرب نفسها، في خطاب وجهة لاينشتاين ما هي (إلا تلهيه لغريزة التدمير بتوجيهها نحو العالم الخارجي» (م: ١، ص: ٤٠).

ويؤكد نمط آخر من الانتقادات أن ثمة قصوراً خطيراً في الخطوات التجريبية التي استخدمها فرويد في إثبات صدق فروضه، لأنه أجرى ملاحظاته في ظروف تفتقر إلى الضبط وانه لم يسجل ما يقوله هو،والمرضى وما يفعلونه ساعة العلاج، وإنما كان يعمل في مذكرات يسجلها بعد ساعات من المراجعة العلاجية.

ويرى نمط آخر من النقد أن فرويد كان يقبل كل ما يقوله مرضاه كما هو، دون محاولة التيقن منه عن طريق أي شكل من أشكال البرهان الخارجي. واعتماداً على هذه البيانات ـ المشكوك بصحتها ـ شرع فرويد في استخلاص الاستنتاجات والوصول إلى النتائج بطريقة الاستدلال المنطقي التي تفتقر إلى السند العلمي. ولهذا يرى كثير من النقّاد أن معظم ما نجده في كتابات فرويد هو النتيجة النهائية لتفكيره (م: ٣).

يضاف إلى ذلك أن المفاهيم التي يستخدمها فرويد لا يمكن أن تختزل إلى أشياء قابلة للملاحظة والتجريب. وأن كل كلامه يبدو عائماً لا يستند إلى قواعد علمية، ولا يطرح أية مقادير أو علاقات كمية، إضافة لافتقارها إلى القدرة التنبؤية وعدم إمكانية التحقق من إفتراضاته عن طبيعة الإنسان، ومع ذلك فإن قسماً من علماء النفس يرون أن فرويد من

علماء النفس المبرزين، وإن مساهمته في علم النفس كانت عظيمة جداً. وأنه «بالرغم من أن تقديراً مضبوطاً لنظرية التحليل النفسي في الشخصية يبدو أمراً صعباً» (م: ٢٢، ص: ٥٥١) فإن فرويد «جاء بأول نظرية ديناميكية شاملة نسبياً في الشخصية» (م: ١٩، ص: ٥) «وأن نظريته فتحت آفاقاً جديدة، ووجهت النظر إلى الكثير من الحقائق التي تتصل بالنفس البشرية لم تكن معروفة من قبل» (م: ٣، ص: ٤٨٨).

إن فرويد ـ بلا منازع ـ هو أكثر علماء النفس تأثيراً في المجالات غير النفسية. ويتجلى ذلك في مجالين رئيسين هما: الفن والمحاولات التي جرت للتوفيق بين الفرويدية والماركسية.

ففيما يتعلق بالمحاولات التوفيقية بين الفرويدية والماركسية، فقد قام بها جماعة من المثقفين الأوربين ادعوا أنهم اكتشفوا القدرة الراديكالية لنظرية التحليل النفسي. ووجدوا لدى فرويد «مبادىء فلسفية سياسية وجنسية راديكالية، تسعى إلى تقويض الثقافة القائمة» (م: ١، ص: ١٨).

ويقف في مقدمة هؤلاء هربرت ماركوز الذي حاول «أن يجمع بين المادية الماركسية والميتافيزيقية الفرويدية» (م: ٢٠، ص: ٥٩) التي جسدها في كتابه إيروس والحضارة عام ١٩٥٠، واتبعه بمؤلفه الانسان ذو البعد الواحد One Dimensional man عام ١٩٦٤. ثم محاضراته المطبوعة تحت عنوان التحليل النفسي والسياسة عام ١٩٦٨، في محاولة للتوفيق بين المفاهيم الماركسية والمفاهيم الفرويدية.

وحاول فروم Erick Fromm الذي يرى بأن الرأسمالية خلقت في تطورها إنساناً حكم عليه بأن يكون قليل الحيلة، خائفاً قلقاً يائساً وحيداً، تحول ظروف مجتمع الحضارة الغربية دون ممارسته لحريته الإيجابية، وتدفع به إلى حرية سلبية أو إلى الهرب من الحرية: وحاول إعادة النظر بوجهة نظر فرويد في الانسان في ضوء الكتابات المبكرة لماركس.

ونشر أوسبورن عدداً من المؤلفات في هذا الاتجاه أهمها: « ماركس

وفرويد» و«الماركسية والتحليل النفسي» الذي أشار في مقدمته إلى «أن الرسالة الأساسية لهذا الكتاب هي أن النظريات الفرويدية والماركسية، تكون محاولات مختلفة للوصول إلى معرفة الطبيعة الإنسانية، وهذه المحاولات ليست متناقضة بل متكاملة ويثري كل منهما الأخرى» (م: ١، ص: ١١).

ويرى الماركسيون في الأقطار الاشتراكية، بأن مفاهيم التحليل النفسي شوهت العلاقات المتداخلة بين الفرد والبيئة الاجتماعية، وفسرت العمليات التاريخية بلغة العواطف والمغامرات. ويرون أيضاً أن الفرويديين الذين حاولوا التوفيق بين ماركس وفرويد بأنهم في نقدهم للنظام الرأسمالي، كونه مجتمعاً مريضاً يقوم على دوافع لا واعية مكبوتة، ويفسرون حركة الشباب وبقية الأفعال الاجتماعية كونها صراعاً داخلياً يقع في عالم (لا عقلاني) في شكل ثورة جنسية، فإنهم - الفرويديون الجدد - يخفون تناقضات الرأسمالية دون أن يغيروها.

وفي مجال الفن فإن فرويد يرى: «أن الفن هو الميدان الوحيد في حضارتنا الراهنة التي لا تزال تحتفظ فيه بالقدرة المطلقة للفكر، ففي الفن فقط يندفع الانسان تحت وطأة رغباته اللاشعورية لينتج ما يشبه إشباع هذه الرغبات» (م: ١٣، ص: ٨٧٧).

لقد افترض أن فرويد يتحمل المسؤولية الأبوية للسريالية، وأنه، «يحتل مكانة عالية عند السرياليين. شأنه شأن ماركس ورامبو ودي ساد. وإنه إذا كان ماركس قد وضع الإطار العام للثورة، فإن فرويد، بالنسبة للسرياليين، قد زودهم بالإطار العام لتحرر النفس البشرية» (م: ٩، ص: ١٣٨).

وهذا مايراه السرياليون أيضاً وخاصة بريتون André Breton الذي كتب البيان السريالي في عام ١٩٢٤، ووصف فرويد بأنه (قاد الحياة الكلية بفهم مشرق للإخلاص المطلق لتحرر الانسان المدرك بشكله الأعظم كرامة» (م: ٩، ص: ١٣٨).

إن وصف فرويد للأحلام بأنها «مملكة اللامنطق والتحقيق المتنكر لأمنية مكبوتة، والتوفيق بين متطلبات ميل ممنوع والمقاومة التي تثيرها الرقابة التابعة من الأنا» والاكتشاف اللاشعور بالطريقة التي وصفها فرويد، كل ذلك خلب لب، واستثار اهتمام وولع السرياليين بالفوز في هذا «المجهول» من الوجود الانساني الذي أضاءه، والذي أصبح - من وجهة نظرهم - يحتل الحقيقة العارية للانسان ومنبع الطاقة الحقيقي للإبداع الفني. وتحت سحر هذا التأثير انطلق السرياليون لاستكشاف اللاشعور بطريقتين هما: التلقائية Automatism والحلم Dream. وهما طريقتان مماثلتان للتكنيك الفرويدي في التداعي الحر Free Association وتحليل الأحلام Dream Analysis.

لقد مارس بريتون طريقة الكتابة التلقائية Automatism Writing ونشر نتائج هذه الطريقة في مؤلف أسماه «المجالات المغناطيسية Magnetic Fields» وحدد بأن السريالية «وهي التلقائية النفسية الخالصة التي تهدف إلى التعبير شعورياً أو كتابة أو بأية طريقة أخرى، عن الوظيفة الصادقة للفكر» (م: ٩، ص: ١٤٠).

وقد اتهم أراكون الرسم السريالي بأنه تطبيقات عامة للرموز الجنسية المبنية على الفهم الفرويدي. وهذا وارد حيث أن الفرويدية اعتبرت أن هناك رموزاً معينة تظهر في أحلام جميع الناس. فالمنزل يرمز غالباً لجسد الإنسان، فإذا كانت الجدران ملساء يكون الأمر متعلقاً برجل، أما إذا كانت مزودة بأسوار فإن الأمر يكون متعلقاً بامراة، ويظهر الوالدان في صورة ملك وملكة، على حين يظهر الأخوة والأخوات في صورة حيوانات صغيرة أو ديدان. وترمز الحياة في الحلم للميلاد. أما العلاقات بين الأم وأطفالها فتمثل بواسطة النزول إلى الماء أو الخروج منه، بإنقاذ الغير أو الانقاذ بواسطة الغير. ويرمز السفر للموت. وتمثل الأعضاء الجنسية بواسطة أشياء تشبهها من بعض الأوجه. فعضو الذكر يمثل بشيء له القدرة على النفاذ (سكين أو خنجر أو رأس الجزر الخ..)

ويمثل العضو الأنثوى بواسطة أشياء مقعرة (بئر، حفرة قدر، علبة، فوهة قنينة إلخ. .).

ختاماً:

يقول كالفن هول: وعلى الرغم من أن كلمة «عبقري» تستخدم بلا تمييز دقيق لتصف أنواعاً مختلفة من الناس، إلا أننا لا نجد لفظة أخرى تناسب فرويد كهذه.

ونضيف إلى قوله: وبالرغم من أن فرويد اعتبر نفسه فاتحاً واعتبره بعض أعدائه عبقرياً عظيمًا، فإننا نرى بأن الأهمية الحقيقية لفرويد تكمن ليس في ما توصل إليه من نتائج، بل في ما أثار من مشكلات.

وتبقى صفة أخيرة في فرويد تثير الاحترام. تلك هي أنه أصيب بسرطان الفك عام ١٩٢٣. وخلال الست عشرة سنة الأخيرة من حياته أجريت له ثلاثاً وثلاثين عملية جراحية. ورغم الألم القاسي الذي أفقده الكثير من وزنه وشوه وجهه وحتى طريقة كلامه، فإنه أنتج الكثير من المؤلفات بينها مؤلفه (موسى والتوحيد) الذي شبه فيه محاولاته الفكرية برسالة موسى الدينية.

المصادر

(١) أوسبورن، روبن. الماركسية والتحليل النفسي. ترجمة سعاد الشرقاوي، مراجعة مصطفى زيور، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٢.

(٢) هول، كالفن. علم النفس عند فرويد. ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة وسيد أحمد عثمان، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٧.

(٣) هول. ك، لندزي، ج. نظريات الشخصية. ترجمة فرج أحمد فرج وآخرين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١.

(٤) ويلز هاري، بافلوف وفرويد. ترجمة شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.

(٥) فرويد، سيجمند. معالم التحليل النفسي. ترجمة محمد عثمان نجاتي، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٩٦٦.
(٦) فرويد، سيجمند. الجنس وأثره في السلوك الانساني. دراسة وتقديم جوزيف حاسترو، ترجمة فؤاد نصار، منشورات حمد، بيروت ١٩٦٧.
(٧) روبنسون، پول، اليسار الفرويدي. ترجمة لطفي فطيم وشوقي جلال، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٤.
(٨) غنيم، سيد محمد. سيكولوجية الشخصية، محدداتها ـ قياسها ـ نظرياتها، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٥.

9. Ades, Dawn, Freud and Surrealist. In Freud the man, his influence. Edited by Jonathan Miller, George Weiden feld and Nicols Ltd., 1972, pp. 71-84.
10. Adler, A. The Science of Living. New York, Chilten, 1929.
11. Freud, S. «An outline of psychoanalysis», Vol. 23, in Kline Paul (1972),
12. Freud, S., Totem and Taboo, (The Basic Writing of Sigmand Freud, tr. and ed. by A.A. Brill) New York. The Modern Library, 1938.
13. Fromm, E., Man For Himself, London: Routledge & Kegan Paul, 1949.
14. Hartman, Heinz, Essays on Ego Psychology. Selected problems in Psychoanalytic Theroy, New York, International University press, Inc. 1964.
15. Hormey, K., The Neurotic personality of our time, New York, Norton, 1937.
16. Horney, K., New ways in Psychoanalysis. New York, Norton, 1939.
17. Jones, Ernest, The Life and work of Sigmund Freud. Edited and obridged by Licel Trillin & Stevenson Marcus, Penguin Books, 1977.
18. Klackhohn, Clyde, Personality: In Nature, Society, and culture. New York, Alfred A. Knope, 1964.
19. Kline, Paul, Fact and Fantasy in Freudian Theory. Methuen & Co. Ltd., London, 1972.
20. Lichtheim, George, «Freud and Marx» In Freud the man, his world, his influence. Edited by Jonathan Miller, George Weiden, feld and Nicolson Ltd., 1972, pp. 55-69.
21. Marx, Melvin H., Introduction to psychology. Macmillan Publishing Co. Inc., New York, 1972.
22. Marx, Melvin, H. and Hillix William A. Systems and Theories in Psychology. McGraw-Hill, Inc., 1973.
23. Quinton, Anthony, «Freud and Philosophy». In Freud the man, his World, his influence, Edited by Jonathan Miller, 1972, pp. 71-84.
24. Sartain, Aron, Q. et al., Psychology: Understanding Human Behaviour, McGraw-Hill, New York, 1973.

25. Stewart, Walter A., Psychanalysis: The First Ten Years. London: George Allen & Unwin Ltd., 1967.
26. Whyte, L. The unconscious Before Freud. London, 1968.